دكتور
شوقي إبراهيم علي عبد الله

دور علم الكلام في الدفاع عن العقيدة وإبطال شبه الطاعنين

الطبعة الأولى
١٤١٢ هـ — ١٩٩٢ م

دار الطباعة المحمدية
٣ درب الأتراك بالأزهر / القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

من آن لآخر تطلق شعارات تتطالب بتحويل علم الكلام إلى المعتقل والحكم عليه بالإعدام بحجة أنه هو الذى أخر المسلمين وهذه حملات ظالمة لا تستهدف علم الكلام لذاته بل تهدف هذه الحملات إلى قطع صلة المسلمين بربهم لأن أصحاب هذه الحملات فطنوا إلى أهمية علم الكلام ودوره فى الحفاظ على عقيدة المسلمين فأرادوا أن يعزلوا هذا العلم عن رسالته فى الحفاظ على العقيدة ولهذا نسمع من العلمانيين على وجه الخصوص باستبدال علم الكلام بعلم يهدف إلى تحقيق الحصول على لقمة العيش بدل الإنشغال بأمور لا تمس الحياة الحيانية — الدنيوية — ومنطقهم ظالم لأن علم الكلام أنار العقول ووضح المفاهيم فكان درعاً للإسلام وسلاحاً بيد علمائه ضد الآراء التى تخالف وجهة نظر الإسلام فى المسائل الإعتقادية والكون والحياة وهذا العلم قد أدى دوره وأخصب الفكر الإسلامى فجعل للقضايا الشائكة حلولا طريفة ونافع فى سبيل العقيدة فأثبت للخالق الوجود والكمال والتنزيه المطلق على ضرب من ضروب التشبيه والتجسيم كما وردت بذلك النصوص فى حجج بليغة وأدلة قوية وبرهن على صدق النبوة ببيان المعجزة وشرف الأخلاق ودلل على إمكان الآخرة بحجج أخلاقية ونفسية وقـــدم بياناً لمسائل كلامية ومعضلات فلسفية واستلهم من المصادر الإسلامية واستضاء بها واقتبس من علوم الأوائل ووفق بين مفاهيمها حتى اختلطت مباحث الكلام بمباحث الفلسفة[1] .

(١) د/ بلقاسم الغالى علم الكلام القرآنى ضمن مجلة المسلم المعاصر ص ٦٦

نعم طرأ على مباحث هذا العلم ما طرأ على بعض العلوم الإسلامية من بعد عن الإبتكار والتجديد والتردى فى مهاوى الإنحدار والسقوط وصار الإجتهاد فى علم الكلام منحصراً فى ترديد مقالات السابقين وشرحها أو توضيح متن وحل مغلقاته وصارت كتب السابقين تحاور فى الألفاظ وتناظر فى الأساليب على حد تعبير الشيخ محمد عبده وتخلف ركب هذا العلم تبعاً لتخلف المسلمين العام وأصيب بالضحالة ولكنه لم يصب بالعقم لأن محاولات التجديد لم تغب عن الساحة إلا فى عصور الإنحطاط وبدأ المسلمون يتحسسون طريق النهضة لمختلف قضاياهم وفى مقدمة ذلك الإهتمام بتجديد علومهم وجعلها مواكبة للعصر وعلم الكلام يتبوأ منزلة هامة فى الخطط الإسلامية لأن الأزمة التى تعانيها المجتمعات الإسلامية تتمثل فى العقيدة بالدرجة الأولى على مستوى التصور ثم السلوك وهذه الأزمة تصيب شباب الأمة الإسلامية الذى يعانى فراغاً روحياً مرده إلى أسباب كثيرة منها إفلاس النظم التعليمية ذات المناهج العلمانية والغزو الفكرى للفلسفات المادية المعاصرة والتأثير الأعلامى للوسائل الإعلامية المتطورة التى جعلت العالم قرية صغيرة .

لذلك كان لزاماً على الباحثين فى شئون علم الكلام أن يعيدوا النظر فى مناهجه وموضوعاته وطرائق طرحها وأساليب عرضها وليس من اليسير تجديد هذا العلم نظراً لما يتطلبه من مراجعة عامة تعود به أحياناً إلى مصدره الأصلى القرآن وتربطه أحياناً بما يجد من اكتشافات فى ميدان التقدم العلمى .

إن مايريدة المسلم المثقف عندما يتجه بالسؤال إلى المتكلم الحديث عن خالق الكون متماشياً مع أساليب ونتائج العلوم التى توصلت إلى أسرار الذرة وغزت الفضاء وكشفت عن سنن الكون وأسراره وظواهره ولاتزال تكشف ما يحير العقول بأن السائل يريد جواباً يقوم على

استخدام المنطق السليم ويدعوه إلى الإيمان بربه إيماناً يقوم على الإقتناع لا على مجرد التسليم كما تفعل بعض الأساليب الكلامية إزاء كثير من القضايا .

فعلم الكلام يجب أن يقوم على أساس المعرفة بالواقع الفكرى للخصماء من حيث الأفكار ومن حيث أسلوب التفكير والعرض ومن حيث أسلوب المواجهة بما يتفق مع طبيعة الموقف بمراعاة ما يرد من الإعتراضات فى موضوعها وأساليبها فيكون لكل مقام مقال ولكل طريقة فى الهجوم طريقة فى الرد تناسبها ولكل شبهة مهما كانت خفية الخطر ما يكشف عن خطرها ويرد كيدها .

وفى هذا البحث عرض للدور الذى قام به علم الكلام فى الدفاع عن العقيدة الإسلامية وكيف جادل المخالفين للعقيدة الإسلامية ورد على شبهاتهم وأبطل أدلتهم وناقش عقائدهم الباطلة .

فقد رد على الدهرية الذين أنكروا الصانع وقالوا بقدم العالم .

ورد على الثنوية القائلين بالهين أثنين النور والظلام .

ورد على النصارى القائلين بالتثليث .

ورد على البراهمة المنكرين للنبوة .

ورد على اليهود الذين أنكروا النسخ وأنكروا نبوة محمد ﷺ .

ورد على كل التيارات المعادية كالزرادشتية والمانوية والمزدكية والباطنية .

هذا وقد أعطيت نماذج للتحديات الواردة على العقيدة الإسلامية مضموناً وأسلوباً والمواجهة التى قام بهـا علم الكلام قديماً وحديثاً وذكرت أن هذه التحديات قد فرضت على المتكلمين الذين إنصبوا

أنفسهم الدفاع عن الإسلام أن يعدو للأمر عدته وأن يتسلحوا بسلاح خصومهم حتى يستطيعوا أن يقارعوا ذوى الأهواء ويردوا شبهاتهم وينتصروا لدينهم .

أسأل الله أن أكون وفقت فيما أردت وحسبى أنى قصدت الخير وماتوفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب .

فى يوم { ١١/٦/١٩٩٢ م
١٠/١٢/١٤١٢ هـ

دكتور
شوقى إبراهيم على عبد الله
أستاذ مساعد بقسم العقيدة والفلسفة
بكلية أصول الدين — القاهرة

تمهيد

إن من بين أهداف علم الكلام الدفاع عن العقيدة والذود عنها ضد شبهات المبطلين وذلك لأنها قد واجهت تحديات خطيرة من أصحاب العقائد المناوئة والنحل الضالة والملل المنحرفة التى كانت تموج بها البلاد الإسلامية آنذاك .

إن أهمية علم الكلام تتمثل أكثر ما تتمثل فى القيام بهذه الرسالة والإضطلاع بهذه المسئولية التى تهدف إلى المحافظة على الإسلام ومواجهة خصومه ورد هجماتهم المسمومة على العقائد الإسلامية[1] .

ولكى نعرف فضل علم الكلام علينا أن نتصور ما كان يمكن أن يحدث للعقائد الإسلامية لو أن الميدان خلا من المدافعين عن الإسلام وصال خصومه وجالوا فى أرضه يثيرون الشبهات والأباطيل أما كان من الممكن أن يؤدى ذلك إلى تسرب الشك إلى قلوب المسلمين وزعزعة أركان العقيدة وضعف أثرها فى نفس المؤمنين بها إن الحق لا يستطيع أن يصمد وحده إذا وقف أمام جيوش الباطل بلا نصير بل لابد له من أنصار يذودون عنه ويوطدون دعائمه ويخرصون أصوات الباطل هذا ما قام به علماء الكلام تجاه الإسلام فقد ثبتوا عقائده وأكدوها وأقاموا الأدلة على صدقه وصحتها وزادوا عن حماها وفندوا الشبهات والشكوك التى كانت توجه إليها وناقشوا الآراء والنظريات المخالفة لهذه العقائد وأقاموا البراهين على بطلانها وتهافتها .

---

(١) د/عبد المقصود عبد الغنى أصول العقيدة الإسلامية صـ ٣٠

ومن هذا لا نبالغ إذا قلنا إن علم الكلام يعتبر أهم العلوم بالنسبة للإنسان المسلم لأنه علم العقائد وهذه العقائد تحتاج إلى الحراسة والدفاع عنها فى مواجهة حملات التضليل وهجمات التشكيك التى يشنها أعداء الإسلام ومن الثابت أن كل الأعمال التى يتقرب بها العباد إلى خالقهم يتوقف قبولها عند الله على صحة العقيدة التى يضطلع بدراستها وحراستها هذا العلم لأن الإنحراف عن الإيمان هو الكفر والله لا يقبل من كافر عملا ولهذا فإن الإمام الغزالى يقرر بأن تعلم علم الكلام يكون ضرورياً لشخصين : —

أحدهما : رجل وقعت له شبهة لا تزول بكلام قريب بل لابد لها من القول المرتب الكلامى حتى ترفع هذه الشبهة من قلبه .

والثانى : شخص كامل العقيدة وراسخ الإيمان يريد أن يحصل هذه الصفة ليداوى بها من وقع فى قلبه شبهة أو ريبة أو يفحم بها مبتدعاً إذا ظهر له وجادله أو يحرس بها عقيدته إذا قصد مبتدع أغواءه فتعلم ذلك لهذا الغرض من فروض الكفايات وتعلم قدر ما يزيل الشك والشبهة فى حق المتشكك فرض عين إذا لم يمكن إعادة اعتقاده الجازم بطريق آخر سواه[1] .

ويمكن القول بناء على هذا أن تعلم علم الكلام يكون فرض عين على المسلم إذا اعترته شبهه فى شىء من أصول الدين لا تزول إلا بتعلمه أو بتعلم شىء منه ويكون فرض كفاية إذا احتيج إليه فى مزاولة من وقع فى قلبه شبهة أو مجادلة المبتدعة والكفار أو الدفاع عن عقائد الإسلام ورد الشبهات التى يثيرها خصومه ضده وقد قال العلامة الدوانى إن الفقهاء قرروا [أنه لابد أن يكون فى كل حد من مسافة القصر شخص يعلم تفصيل

---

(١) فيصل التفرقة الإمام الغزالى ص ٢٥

الدلائل بحيث يتمكن من إزالة الشبهة وإلزام المعاندين وارشاد المسترشدين[1] .

ولعل هذا كله يسمح لنا بالقول أن علم الكلام لم ينشأ رغبة في الجدال والمراء وإنما نشأ أساساً للدفاع عن الإسلام والرد على التيارات المناوئة والعقائد المناوئة .

---

(١) القاسمي دلائل التوحيد ص ١٩ نقلا عن د/عبد المقصود عبد الغني أصول العقيدة الإسلامية ص ٣١

التحديات الواردة على العقيدة الإسلامية

إذا استقرأنا التاريخ نجد أن أى عقيدة سماوية كانت أو أرضية ووجهت بمعارضات فكرية معارضة لمضمونها أو لبعض مضمونها هذه التحديات تهدف إلى أن تقوض هذه العقيدة أما بالتحريف أو اللبس والخلط فى النهاية تنتهى إلى التحريف أو التقويض .

ولعل العقيدة الإسلاميه قد واجهت من هذه التحديات الفكرية مالم تواجهه أى عقيدة أخرى وذلك سواء من حيث حـــدة الاعتراضات وشمولها أو من حيث تنوع وتعدد الأطراف والتيارات المتحدية ولهذا أسباب كثيرة منها :

أن العقيدة الإسلامية كا بسطها القرآن الكريم وأيدتها السنة النبوية الصحيحة عقيدة سهلة سلسة واضحة جلية لا لبس فيها ولا غموض لا يتعثر فى فهمها عامة الناس فضلا عن خواصهم وأهل الصفوة وذوى الفكر منهم .

وتتميز العقيدة أيضاً بالعموم والشمول فهى عقيدة الإنسان أيا كان زمانه وأيا كان مكانه والعقيدة الإسلامية هى آخر ارسال السماء إلى أهل الأرض وبعدها انتهى الوحى وانتهت النبوة ومن هنا كان أخص خصائصها أنها خاتمة العقائد .

ونلاحظ أن الحيوية ظاهرة ملحوظة فى العقيدة الإسلامية .

يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ...)[1]

الحيوية بمعـــنى الآفاق العملية وتفجير الطاقات الإنسانية والصعود

---

(١) سورة الأنفال ٢٤

بالإنسان نحو الحياة الأكثر تكاملا ومعنى وسعادة، هذه الحيوية ظاهرة أصيلة ومعمقة فى الإسلام.

ففى مجال العقيدة الإسلامية سواء مايتعلق منها بالله أو الإنسان أو أو الرسل أواليوم الآخر تتدفق حرارة وحيوية وتعطى للإنسان المؤمن زخما وقوة نحو أداء دوره الإنسانى على الوجه الأكمل:

وروعة الإسلام وعظمته تتجسد فى ظاهرة الحيوية فيه ومن هنا فقد ركز أعداء الإسلام جهدا من أجل مسخ هذه الظاهرة والتعتيم عليها وتصوير الإسلام بوصفه دين الخمول والركود ويمكن للتدليل على ظاهرة الحيويه أن نأخذ الأمثلة التالية:

الإيمان بالله... هو إيمان بالرقابة الدائمة على الإنسان وعلى كل خطوة من خطواته هذه الرقابة التى تحفز لديه روح الانضباط والمسئولية والإيمان بالله من ناحية ثانية هو إيمــان بالمثل الأعلى الذى تجتمع عنده كل المحاسن:

فالله هو الهدف الأعلى لحياة هذا الإنسان وهو غاية غاياته وحينما يكون الله هو المثل الأعلى والهدف الأعلى فإن نشاط الإنسان سيتجدد ضمن مايمليه عليه ذاك المثل ويرضاه لا تمليه عليه الأهواء والمصالح والرغبات ويحاول الإنسان أن يقترب دائماً بأخلاقه وسلوكه نحو ذاك المثل متعاليا عن الدناءات والصغائر.

ثم الإيمــان بالله إيمان بقيمة الإنسان بوصفه خليفة الله فى الأرض وبوصفه المخلوق المفضل والقادر على التكامل والتصاعد فى طريق الله

وهكذا نلاحظ أن العقيدة الإسلامية لاتعقل الإنسان عن أداء دوره كما حاول أعداء الإسلام تصوير ذلك حين قالوا: [الدين أفيون[1]

(١) من أقوال: كارل ماركس نقلا عن الإسلام أقوى جهاد قلعجى ص ١٠١

الشعوب] بل يعطيه دفعة حية نحو المضى والجد فى طريق الحق وتحدد له معالم دوره .

تحديات الأمس

إن ديناً فى مستوى مابلغه الإسلام من الانتصارات فى ظرف زمنى وجيز لخليق أن تواجهه صعوبات وعراقيل فلقد أزال عروشا و قلب حكومات وقضى على مصالح وامتيازات لفئات وطبقات وخلق قيما جديدة فى التعامل على المستوى السياسى والاقتصادى والاجتماعى هو الدين الذى جاء بموازين مخالفة لما عهدته البشرية ليس من اليسير أن يجد الطريق ممهدة بل واجه تحديات مختلفة][١] .

مضمون التحدى

لقد وجهت التحديات بأشد مايمكن إلى المسائل الرئيسية فى العقيدة الإسلامية تلك التى لو سقطت منها واحدة لسقطت العقيدة بأكملها بعض هذه المسائل يرجع إلى عقيدة الألوهية كالقول بالتعدد والتشبيه والتجسيم والاتحاد والحلول ومنها مايرجع إلى النبوة كإنكار النبوة عموما ونبوة محمد ﷺ على وجه الخصوص

والقول بعدم انقطاع الوحى بعده متمثلا فى مسائل الرجعة المهدية والعصمة ومنها ماهو راجع إلى المعاد الأخروى كنكران البعث ونفى الجزاء

---

(١) مقال د/ بلقاسم الغالى مجلة المسلم المعاصر السنة السادسة عشرة ١٩٩٢ صـ ٧٤

١ — تعدد الإله

أصل الأصول فى الأديان قضية الألوهية والاسلام طرحه الخاص بهذه القضية أساسه التوحيد الخالص والأعراض عما عداه من وجوه الاعتقاد ولهذه القضية اتجاهات معارضة للتصور الإسلامى .

فالمسيحيون كانوا يعتقدون التثليث « إذ أنهم أثبتوا لله تعالى أقانيم ثلاثة .. ويعنون بالأقانيم الصفات كالوجود والحياة والعلم .. »[١] والأول الآب والثانى هو الروح القدس والثالث هو الابن وكانوا يبثون هذه المقالة فى الناس . والمجتمع الإسلامى حافل بهم — ويدعونها بالأدلة فى مناقشاتهم ومناظراتهم للمسلمين متسلحين بالأساليب المنطقية الفلسفية لإثبات تجسد الكلمة فى المسيح .

ومما زاد المسألة تشعباً اختلاف طوائف المسيحية حول طبيعة المسيح هذه القضية تسربت إلى العالم الإسلامى عن طريق المناظرات بين آباء الكنيسة وبين المسلمين حول طبيعة المسيح فى القرآن قال تعالى : « إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون »[٢] .

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل عمد بعض المسيحيين إلى الدخول مع المسلمين فى جدال حول طبيعة المسيح فى القرآن ووظفوا على آيات الكتاب الكريم حواراً ليفسدوا اعتقاد المسلمين فى الألوهية قال يوحنا الدمشقى : إذا سألك العربى ماتقول فى المسيح ؟؟

فقل : (إنه كلمة الله) ثم يسأل النصرانى المسلم : بما سمى المسيح فى

---

(١) الشهرستانى الملل والنحل جـ٢ ص ٣٠، ٣١
(٢) آل عمران آية ٥٩

القرآن؟ وليرفض أن يتكلم بشيء حتى يجيبه المسلم فإنه سيضطر إلى أن يقول: إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمتـــه ألقاها إلى مريم وروح منه »[1].

ثم يسأله عن كلمة الله وروحه أمخلوقة هي أم غير مخلوقة؟ فإن قال مخلوقة فليرد عليه بأن الله كان ولم تكن كلمة وروح فإن قلت ذلك فسيفحم العربي، لأن من يرى هذا الرأي زنديق في نظر المسلمين »[2].

ويوضح توماس أرنولد الأمر إذ يقول: هؤلاء الذين دخلوا كنف الدين وحملوا معهم ثقافة الامبراطورية البيزنطية وثقافة اليونان .. وهذه الانشقاقات الواسعة أفزعت السلطات الكنيسة فشرعت تهاجم بالجدل والمناظرات أسس العقيدة الإسلامية: وما هي الطبيعة الإلهية؟ وما معنى قوله أنه على كل شيء قدير » و « أنه بكل شيء عليم ».

وما هي علاقة علمه بذات نفسه[3]؟

ويتضح من خلال الحوار في النص الأول والمترتب على طريقة السؤال والجواب والمتضمن لقضايا تبحث في كنه الذات إن ذلك كان تمهيداً لمشكلة من أكبر مشكلات العقيدة التي حدثت في العالم الإسلامي وهي مشكلة خلق القرآن.

وبالنظر للنص الثاني نلاحظ كيف شرعت الكنيسة تهاجم عقيدة

---

(١) النساء ١٧

(٢) الشيخ محمد أبو زهرة تاريخ المذاهب الإسلامية جـ ١ ص ١٧٧ نقلا عن مجلة المسلم المعاصر ص ٧٥ سنة ١٩٩٢ م مقال د/ بلقاسم الغالي.

(٣) سير توماس أرنولد تراث الإسلام ص ٣٦٣ السنة ١٦ ،

الألوهية بالجدال والمناظرة لبث البلبلة فى أفكار المسلمين بل لقد أورد ابن النديم أقوال قساوسة كانوا يهدفون إلى تنصير المسلمين(١) .

وربما كان أخطر من المسيحيين فى بث هذه المقالة وإفساد فكرة التوحيد أهل أديان فارس الثنوية من مانوية ومزدكية وديصانية وغيرها فكل هذه الأديان تتفق فى عقيدة « أن العالم مركب من شيئين نور وظلمة وهما قديمان لم يزالا ولايزالان ، وقالوا : لم نر إلا حساسين قويين دراكين سميعين بصيرين وهما مختلفان فى النفس والصورة ، ومتضادان فى الفعل والتدبير فجوهر النور فاضل حسن مختص بالصفاء والنقاء وطيب الريح وحسن المنظر .. وجوهر الظلمة على ضد ذلك من النقص والكدورة ونتن الريح وقبح المنظر(٢) .

وقد حارب هؤلاء التوحيد الإسلامى سراً وعلانية وبالأخص منهم المانوية والمزدكية ووجهوا لنقضه شبها كثيرة دعموها بأدلة عقلية من مثل قولهم : « إن الخير والشر يستحيل مع تضادهما وقوعهما من فاعل واحد كما يستحيل أن يحصل التبريد والتسخين بالشىء الواحد والتبييض والتسويد بالشىء الواحد . .

فإذا وجب إثبات فاعلين لهما لم يصح إثبات محدث للعالم سواه فيجب إثبات أصلين قديمين(٣) .

وكان لهذا المذهب كثير من الدعاة فى البيئة الإسلامية مثل ابن طالوت وابن الأعـدى الحريزى وصالح بن عبد القدوس وعبد الكريم بن أبى

---

(١) ابن النديم الفهرست ص ١٨٠
(٢) القاضى عبد الجبار المغنى جـ ٥ ص ١٠
(٣) نفس المصدر المغنى جـ ٥ ص ٤٥

العوجاء وكان « لهؤلاء كتب مصنفة فى نصرة الإثنين ومذاهب أهلها وقد نقضوا كتباً كثيرة صنفها المتكلمون فى ذلك »[١] .

كما كان لهم شعراء وكتاب من أمثال بشار برد : رد واسحاق بن خلف وأبى عيسى الوراق وأبى العباس الناشى[٢] وكذلك أبى العتاهية ، وعبد الله بن المقفع فقد ألبس هؤلاء الاثنينية ثوب الفن شعراً ونثرا وقدموها للناس لتمر إليهم فى نشوة الطرب وتصبح بالمعاودة والتكرار عقيدة لهم ومن الممكن أن نشير إلى ما ورد على لسان أبى العتاهية فى قوله :

لكل إنسان طبيعتان خير وشروهما ضدان

وفى قوله :

استغفر الله من ذنبى ومن سرفى
إنى وإن كنت مستوراً لخطاء
لم تقتحم بى دواعى النفس معصية
إلا بينى وبين النور ظلماء

٢ — التجسيم والتشبيه

الله تعالى واحد ليس كمثله شىء[٣] ذلك أصل أساسى فى الدين دافع عنه المتكلمون وردوا شبهات القائلين بآراء تشوب أصل التوحيد والتنزيه لله تعالى ووصف الله بالجسم لا يصح لأن ذلك يقتضى التحيز إذ لا بد من تحيزه ووجب أن لا ينفصل تحيزه عن كونه كائنا فى جهة والكائن

---

(١) ابن النديم الفهرست ص ٣٣٨ .
(٢) المصدر السابق ص ٣٣٨
(٣) قال تعالى ليس كمثله شىء وهو السميع البصير الشورى آية رقم ١١

لا يكون كائنا فى جهة إلا لمعنى محدث والقول بأنه تعالى جسم يعنى أنه محدث والله ليس محدثا بل قديماً وأيضاً الأجسام متماثلة وإذا كانت متماثلة استوت فى استحقاقها للصفة الذاتية فلو كان تعالى جسما لكان ما عداه من الأجسام قديماً مثله[١] .

ولقد نفى المتكلمون التشبيه ، أى تشبيه الخالق بصفات المخلوقين فقالوا بأنه لا يجوز وصفه بالانتقال والمجىء والذهاب ولا إضافة الحالات الانفعالية إليه كالمكر والخداع أو إضافة الجوارح أو معانيها إليه وأيضا نفوا تشبيه المخلوقين بالخالق فقالوا بأنه تعالى لا يحل فى الأشياء ولا يوصف بالاتصال بها ولا بالحلول ولا بالخروج منها من جهة المسافة هذه إشارة موجزة إلى موقف المتكلمين من التجسيم والتشبيه بالقدر الذى يسمح به المجال[٢] .

لقد وجد فى المجتمع الإسلامى من يعتقد بأن الله جسم أو فى هيئة الأجسام ويلحقه من الأحكام ما يلحقها وأن الله يماثل فى أوصافه المخلوقات لقد روج اليهود وبعض الثنوية والمتأثرون ببعض آراء الفلسفة اليونانية لهذه الأفكار بين الناس .

نعم لليهودية تصورات خاطئة عن قضية الألوهية إذ الطابع الغالب

---

(١) القاضى عبد الجبار المحيط بالتكليف جـ ١ ص ١٩٨ — ١٩٩ وشرح الأصول الخمسة ص ٢١٦ — ٢١٧

(٢) انظر لموقف المتكلمين على سبيل المثال الأشعرى مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ٢٣٥ — ٢٣٦ — ٢٦٦ البياضى اشارات المرام ص ١٩٢ .

على هذا التصور لبشرى فى صفاته وأفعاله والنص واضح فى التوراة فالله فى اليهودية يحزن ويبكى حتى ترمد عيناه ويفرح ويصارع يعقوب[١] .

وقد كان اليهود سواء منهم الباقون على دينهم أو الذين أظهروا الإسلام أو الذين أسلموا حقا من ذوى العقول الضعيفة كانوا يفشون هذه التجسيمات والتشبيهات فى أوساط المسلمين وذلك إما بإثباتها صريحة من قبل من بقوا على يهوديتهم خلال مناقشاتهم للمسلمين وإما بصوغها فى شكل أحاديث ونسبتها كذبا إلى الرسول ﷺ من قبل الذين أظهروا الإسلام وإما بإدخالها أخباراً فى شروح العقيدة وخاصة عن طريق التفسير من قبل الذين أسلموا من ضعفة العقول .

قال الشهرستانى عن هذا المعنى : [وزادوا (أى المجسمة) فى الاخبار أكاذيب وضعوها ونسبوها إلى النبى عليه الصلاة والسلام وأكثرها مقتبسة من اليهود فإن التشبيه فيهم طباع[٢] .

والثنوية كانوا على شىء من التجسيم فى عقيدة النور والظلمة [فالنور أحد الالهين يصفونه بالمحدودية من الجهة التى يلاصق فيها الظلام، وبالتالى فالظلام هو محدود أيضاً ، قال البغدادى بصدد الحديث عن [الكرامية : وهذا شبيه بقول الثنوية إن معبودهم الذى سموه نورا يتناهى من الجهة التى يلاقى فيها الظلام وإن لم يتناه من خمس جهات[٣] .

والمزدكية كان من عقيدتهم أن الله جالس على كرسيه فى العالم الآخر على هيئة جلوس الملك (خسرو) فى العالم الأسفل[٤] .

---

(١) الشهرستانى الملل جـ ٢ صـ ٨
(٢) الشهرستانى الملل والنحل جـ ٢ صـ ٧ – ٨
(٣) البغدادى الفرق بين الفرق صـ ٢٠٣
(٤) د/ على سامى النشار نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ١ صـ ٣٩٣

كما كان بعض الثنوية يعتقدون بتغير الإله وقيام الحوادث به فعندهم أن الإله (يزدان) فكر فى نفسه [أنه يجوز أن يظهر له منازع ينازعه مملكته فأهتم لذلك لحدثت فى ذاته عفونه بسبب هذه الفكرة فخلق منها الشيطان][١] .

والمتأثرون بالفلسفة اليونانية تأثراً مباشراً أو عن طريق مذاهب أخرى متأثرة بها كانوا يعتقدون بوجود مادة قديمة مطلقة تحدث فيها الحوادث وقد أعتقد البعض أنها أصل الوجود وصبغتها صفة الأزلية بصفة الألوهية وكان هذا الرأى معروفا لدى المسلمين مشهوراً بينهم حتى البغدادى يحاول أن يرجع قول الكرامية بقيام الحوادث بذات الله إلى التأثر به فيقول : (وهذا نظير قول أصحاب الهيولى إن الهيولى كانت فى الأزل جوهرا خاليا من الأعراض ثم حدثت الأعراض فيها وهى لاتخلو منها فى المستقبل)[٢] .

٣ — الإتحاد والحلول :

يشير بعض الباحثين إلى أن [الحلول دعوى من أخطر الدعاوى التى ظهرت فى الإسلام قال بها من غلاه الروافض من السبئية ومن ماثلهم ومعناه (كما فى الطوالع) (قيام موجود بموجود على سبيل التبعية)[٣] .

ويذكر الأستاذ محمود المنوفى (أن الحلول هو تلبس أو تداخل شىء فى شىء أكبر منه ومغاير له على أن يكون الحال والمحلول فيه محدودين

---

(١) الاسفرايينى — التبصير فى الدين ص ١٠١ ط الخانجى سنة ١٩٥٥
(٢) البغدادى الفرق بين الفرق ص ٢٠٥
(٣) الفرق الإسلامية ص ٨٤ ط ١٩٣٢ م الأستاذ محمود البشبيشى

وبالتالى ماديين محسين والمعانى لا تتحيز فقط وبالأخص أوسعها إطلاقا وأعمقها شمولا[1] .

ومعنى الاتحاد هو أن تتداخل أجزاء شىء فى أجزاء شىء آخر أو ذراته أو تتحلل ذراتهما بعضهما البعض الآخر أو مشاركة شىء لشىء آخر فى خصائصه وحالاته وإجمالا هو أن يصير الجرمان المتحدان جرما واحداً له خصائص الجرمين المتحدين ومبطلة لخصائصهما[2] .

فالاتحاد يشبه الحلول من حيث إنه اندماج بين طرفين محدودين ويكون أحدهما مكملا للآخر بدليل ضرورة الاتحاد بينهما[3] .

ويظهر أن الاتحاد أعم من الحلول لأن الاتحاد قد يكون على جهة الحلول وقد يكون على جهة غيره كالمجاورة مثلا والاتحاد أيضاً يكون بصعود الإنسان إلى الله والحلول بنزول الله إلى الإنسان .

وقد كان لهذا المعتقد منتصرون يعيشون فى محيط البيئة الإسلامية ويدعون إلى معتقدهم طعنا على التنزيه الإسلامى المطلق يشير البغدادى إلى ذلك فيقول : الحلولية فى الجملة عشر فرق كلها كانت فى دولة الإسلام وغرض جميعها القصد إلى إفساد القول بتوحيد الصانع وتفصيل فرقها يرجع إلى غلاة الروافض[4] .

معنى ذلك أن غلاة الشيعة هم الذين احتضنوا فكرة الحلول وقبلوها

---

(١) كتاب الوجود ص ٢٥٩ الأستاذ محمود أبو الفيض المنوفى المكتبة الفيضية .

(٢) المصدر نفسه ص ٢٦٠

(٣) المصدر نفسه ص ٢٥٩

(٤) البغدادى الفرق بين الفرق ص ١٥٤

بقوة لكن من أين أتى غلاة الشيعة بفكرة الحلول والجواب أننا إذا تتبعنا بداية القول بفكرة الحلول نجد أن عبد الله بن سبأ هو أول من ألقى بها فى محيط الغلاة وقد ثبت ذلك عند كتاب الفرق والسؤال الآن من أين أتى بها ؟ هل نقلها من اليهودية فتكون كفكرة الرجعة وغيرها من الأفكار التى نطق بها كيهودى ؟

والجواب على ذلك بأن اليهودية ليس فيها قول بألوهية أحد من البشر اللهم إلا (قول فرقة منهم بأن عزيرا بن الله وهى فرقة الصدوقيين أو الصدوقية قالت بها دون سائر اليهود[1] .

ويبدو أن الفكرة قد إنقرضت لديهم أو على الأقل لم يشتهر بها اليهود بل على العكس من ذلك عرف اليهود بالتشبيه كما رأينا وهو إنزال الإله إلى درجة الخلق على عكس الحلول الذى يرفع الإنسان إلى درجة الاله.

إن أول من روج الحلول بين المسلمين ودعا إلى إعتقاده رجل يهودى أظهر الإسلام هو عبد الله بن سبأ الذى (كان يزعم أن عليا هو الله تعالى[2] .

فهو لذلك يجب أن يعبد .

ويشير الدكتور عبد الرحمن بدوى إلى ذلك فيقول : (إن ابن سبأ قد أتى بكل الجهاز العقلى الذى كونته لديه اليهودية خصوصا فى صورها الممزوجة بالمسيحية المنحولة عند الفلاشا يهود الحبشة وراح يطبقه على الإسلام[3] .

---

(١) ابن حزم الفصل ج ١ ص ٩٩
(٢) فخر الدين الرازى — إعتقادات فرق المسلمين والمشركين ص ٥٧
(٣) د/عبد الرحمن بدوى مذاهب الإسلاميين ج ٢ ص ٣٥

ويرى البعض أن مبدأ الحلول يمتد إلى العقيدة الثنوية وأن (الذين ألهوا عليا يحيون عقائد قديمة لها صلة بعقيدة النور القديمة على صورها المختلفة التي عاشت في أرض العراق في عصور عريقة في القدم التي هي الأساس لمذاهبهم المختلفة[1].

وقد كان أتباع الأديان الهندية كالبرهمية والبوذية والمتأثرون بهم يعتقدون بالاتحاد والحلول وكانوا يروجون هذه العقيدةوعلى الأخص في شكل التصوف الغالي والنصارى هم أكثر الناس إيغالا في عقيدةالحلول حيث دعموا هذه العقيدة بالأدلة بهدف تقويض عقيدة الإسلام فأكثرهم — أي النصارى — يعتقدون — أن المسيح يجمع بين طبيعة الهية وطبيعة إنسانية لأن كلمة الله التي حلت في مريم فولدت إلها قديماً.

وقد قصد هؤلاء إلى أن يفعلوا بقرآن المسلمين وهو كلام الله مثلما فعلوا بالمسيح كلمة الله كما تقدم.

يذكر الشهرستاني أن من بين المذاهب التي نشأت منها شبهات الغلاة مذاهب النصارى إذ النصارى شبهت الخلق بالخالق فسرت هذه الشبهات في أذهان الغلاة حتى حكمت بأحكام الإلهية في حق بعض الأئمة[2].

ويقول الملطي عن السبئية وأما قولهم بأن عليا هو الإله القديم فقد ضاهو بذلك قول النصارى[3].

ويقول الإمام الغزالي عن الحلول وعليه مذهب النصارى في اتحاد

---

(١) محمد جابر عبد العال حركات الشيعة المتطرفين ص ٤١
(٢) الملل والنحل جـ ١ ص ١٧٣
(٣) التنبيه والرد على أهل الأهواء ص ٣٩ إلى الملطي

فى اتحاد اللاهوت بناسوت عيسى عليه السلام حتى سماه بعضهم الها وبعضهم ابن الاله ، وقد تخيل جماعة من الروافض (غلاة الشيعة) ذلك فى على رضى الله عنه وزعموا أنه الاله وكان ذلك فى زمانة حتى امر باخرامهم)[1] .

والإمام الغزالى يشير بذلك إلى السبئية :

والحلول عموما : الذى معناه قيام موجود بموجود على سبيل التبعية (محال على الله تعالى لأنه لا يمكن حلول القديم فى الحادث لاختلاف ما هيتى القديم والحادث ولأن الحلول يجعل الحال تبعا لما حل فيه فلا يتفق الحال الا بتوسط المحل فيكون الحال معلولا له ومتأثرا به وهذا ينافى وصف الله تعالى بكونه واجبا لذاته ولأن الحلول إن كان حلول عرض فى جوهر فليس الله تعالى جوهرا ولأن الحلول ومثله الاتحاد بين الممكنين محال اذ لا يمكن أن يصير رجلان رجلا واحدا لتباينهما فى الذات فالتباين بين واجب الوجود وبين الممكن أعظم وأولى لتباين الماهيتين فى الواجب والممكن[2] .

ويقرر الغزالى أن حلول ذات الاله فى الانسان مستحيل الامكان متعذر الوجود ذلك أن وجود كل حقيقة مركبة موقوف على وجود أجزائها وتركيبها تركيبا خاصا فحينئذ تكون مفتقره فى وجودها إلى وجود أجزائها ويكون كل جزء من أجزائها مفتقراً فى جزئيته — أى فيما يصير به جزءا محصلا له صفة الجزئية وتركيبه الخاص إلى انضمام غيره والتقدير أن أحد جزئى هذه الحقيقة اللاهوت وجزأها الآخر الانسان وهو المحصل للاهوت صفة الجزئية وتركيبه الخاص بانضمامه إليه جزءا

(١) الإمام الغزالى فضائح الباطنية ص ١١٠
(٢) محمود البشبيشى الفرق الإسلامية ص ٨٥

إذ بذلك حصل بمجموع ما ذكر فيكون اللاهوت مفتقراً إلى الانسان وذلك محال بين بطلانه هذا اذا لم يرد بالتركيب تركيب امتزاج واتحاد أو مجاورة فإن أريد به شيء من ذلك كان الخطب اعظم فى الفساد)[١] .

ثم إنه من الثابت أن الإله اذا كان خالقا للناسوت ثم ظهرت فيه متحدا به فقد حدثت له صفة بعد خلقه وهو اتحاده به وظهوره فيه فإذا كانت هذه الصفة واجبة الوجود استحال اتصافها بالحدوث وإن كانت ممكنة الوجود استحال اتصاف البارى بها لأن صفات البارى كلها واجبة الوجود لأن كل ما لزم من عدم وجوده محال فهو واجب الوجود وصفات الإله يلزم من عدم وجودها محال بين[٢] .

وقد برهن عضد الدين الايجى[٣] على بطلان الحلول بقوله:(إنه تعالى لا يجوز أن يحل فى غيره وذلك لأن الحلول هو الحصول على سبيل التبعية وانه ينفى الوجوب الذاتى .

(وأيضا : لو استغنى عن المحل لذاته ، لم يحل فيه) اذ لا بد فى الحلول من حاجة ويستحيل أن يعرض للغنى بالذات ما يحوجه الى المحل لأن ما بالذات لا يزول بالغير (وإلا احتاج اليه) أى إلى المحل (لذاته) فإن الاستغناء عدم الاحتياج ولا واسطة بينهما (ولزم) حينئذ مع حاجة الواجب (قدم المحل) فيلزم محالان معاً .

(وأيضا) اذا حل فى شيء(فإن المحل: إن قبل الانقسام لزم انقسامه

---

(١) الرد الجميل ص ٢٦٩ للامام الغزالى

(٢) المصدر نفسه ص ٢٧٠

(٣) المواقف الموقف الخامس ص ٤٨ نشر مكتبة الأزهر

وتركيبه واحتياجه إلى أجزائه . وهو باطـــل (وإلا) أي وان لم يقبل الانقسام : كالجوهر الفرد (كان)الواجب (أحقر الأشياء) لحلوله فيه .

(وايضا : فلو حل فى جسم فذاته قابلة للحلول) فى الجسم(والأجسام) متساوية فى القبول) لتركبها من الجواهر الأفراد المتماثلة(وإنما التخصيص ببعض الاجسام دون بعض (للفاعل المختار فلا يمكن الجزم بعدم حلوله فى البقة والنواة وانه ضرورى البطلان والخصم معترف به ونبه عضد الدين الا يجى إلى أنه كما لا تحل ذاته فى غير لا تحل صفته فى غيره لأن الإنتقال لا يتصور على الصفات وإنما هو خواص الذوات لا مطلقا بل الاجسام) .

هذا وقد اتفق المسلمون على أن الله لا يحل فى ذات أخرى وقام علماء الكلام بالرد على الحلولية وابطال مزاعمهم[١] .

٤ — ومن التحديات التى واجهها المتكلمون قديما

— أنكار النبوة —

وقد أشار القرآن إلى مقدمات هذه القضية تلميحا عندما قال على لسان بعضهم (قالوا أبعث الله بشراً رسولا)[٢] .

وهناك تحد من بعض النحل المتواجدة بالمجتمع الإسلامى تنكر مبدأ النبوة أساساً وقدأشتهر بهذا من أديان الهندالبرهمية فقد أنكرت الإمكان العقلى للنبوة فضلا على الوقوع الفعلى وقد أورد البراهمة والمتأثرون

---

(١) انظر الشيخ محمود أبو دقيقه القول السديد فى علم التوحيد حـ ١ ص ١٥٦

(٢) الإسراء ٩٤

بهم شبها كثيرة فى هذا المعنى صاغوها فى أدلة عقلية وهاجموا بها أهل النبوات عموما والمسلمين خصوصا وقد ذكر منها القاضى عبد الجبار جملة كبيرة ورد عليها فى كتابه المغنى[1] .

ولئن كان اليهود والنصارى يؤمنون بالنبوة الا أنهم كانوا ينكرون نبوة محمد ﷺ معتمدين على انكارها بجواز النسخ تارة وعلى ما زعموا من تناقض ما جاء به النبى عليه السلام أخرى ولهم فى ذلك وخاصة اليهود جولات كبيرة مع المسلمين نجد بعضها منها فى كتاب الرد على ابن النغريلة اليهودى) لابن حزم الظاهرى .

ونسب اليهود إلى الانبياء نقائص تحط من مقام النبوة فهم صفوة مختارة وقادة الانسانية ونماذج رفيعة للخير فكيف تصدر عنهم قبائح لا تليق بفرد عادى ؟ كمضاجعة لوط لا بنيته بعد أن سقياه خمراً وانجابه منهما وكتنازل ابراهيم عن زوجته خشية على حياته من فرعون وقوله انها أخته .

هذه الفضائح التى ينسبها اليهود الى أنبيائهم كانت تصك أسماع المسلمين لأن اليهود كانت تظلهم مظلة الحكومة الإسلامية وتحميهم رغم اعتقاداتهم المنحرفة فى النبوة وغيرها .

وكتب أبو بكر الرازى الطبيب كتاب (مخاريق الأنبياء)[1] تهجما على النبوة هذه القضايا المتنوعة دفعت علماء الكلام أن يؤكدوا على عصمة الأنبياء ويفردوا لها بابا خاصا من أبحاثهم ،

---

(١) المغنى فى أبواب التوحيد والعدل والنبوات والمعجزات القاضى عبد الجبار جـ ١٥ ص ١٠٩

(٢) أنظر مجلة المسلم المعاصر السنة ١٦ سنة ١٩٩٢

٥ — الرجعة المهدية

ومعناها أن النبي أو الإمام يتغيب عن الناس والعالم أحقاباً من الزمن، لكنه لابد أن تكون له يوما رجعة يقيم فيها العدل ويكون مؤزراً فيما يأتى به بوحى إلهى.

ويذكر الشهرستانى أن من مسائل اليهود العامة تجويز الرجعة وتقع لهم من أمرين. حديث عزير عليه السلام إذ أماته الله مائة عام ثم بعثه وحديث هارون عليه السلام إذ مات فى التيه وقد نسبو إلى موسى قتله بألواحه جسداً له فاختلفوا فى حال موته فنهم من قال إنه مات وسيرجع ومنهم من قال غاب وسيرجع[1] .

وربما كان أول من دعا إلى هذه العقيـــدة بين المسلمين رجل يسمى عبد الله بن سبأ اليهودى فقد زعم أن عليا رضى الله عنه لم يمت وإنما تغيب وسيرجع يوما مؤيدا بالوحى يهدى الناس إلى الحق بل كان أتباعه (يزعمون أن عليا شريك النبى ﷺ فى النبوة وأن النبى مقدم عليه إذ كان حياً فلما مات ورث النبوة فكان نبياً يوحى إليه)[2] .

ونجد أيضاً المانوية والمزدكية يقولون بذلك فأنبياءهم لم يموتوا ولكنهم تغيبوا لمدة معينة ثم يرجعون ليقيموا الحق ويظهروه على الناس وربما ترجع خطورة هذه المعتقدات إلى الإيمان باستمرارية الوحى بعد محمد عليه الصلاة والسلام حيث تجوز هذه الأفكار وجود نبى بعد محمد عليه السلام وهو أمر يعارض مبدأ إسلامى مقرر معلوم من الدين بالضرورة

---

(١) الملل والنحل حـ ١ ص ١١٢ الشهرستانى

(٢) الملطى التنبيه والرد على أهل الأهواء والبدع ص ١٥٨

ألا وهو أنه لانبي بعد رسـول الله فالنبوة معطلة وتتضح خطورة هذه الفكرة أنها فتحت الباب على مصراعيه لمدعى النبوة والمشعوذين كما زعم أرباب البابية والبهائية والقاديانية .

٦ — نكران البعث

وأما الأصل الهام الذى واجه فيه علماء الكلام التحدى فهو البعث ونكرانه عام فى جميع الأزمان لدى الماديين ولم ينفرد به زمن دون آخر .

ولقد أشار القرآن إلى رأى أقوام أنكروا الحشر والنشر عند قوله : ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر[١] .

ويظهر هذا الإنكار عند أديان اليهود وخاصة البراهمة والسمنية والمانوية وأما المتأثرون بالفلسفة اليونانية والذين يقولون بالتناسخ وهو عندهم رد الروح إلى بدن غير البدن الأول[٢] .

ويحكى الأشعرى عن أهل الغلو المتأثرين بهم أنهم يقولون : ليس قيامة ولا آخرة وإنما هى أرواح تتناسخ فى الصور فمن كان محسناً جوزى بأن ينقل روحه إلى جسد لا يلحقه ضرر ولا ألم ومن كان مسيئاً جوزى بأن ينقل روحه إلى أجساد يلحق الروح فى كونه فيها الضرر والألم وليس شىء غير ذلك وأن الدنيا لا تزال أبداً هكذا[٣] .

وفى هذا المبدأ تعطيل مطلق لعقيدة البعث الإسلامية لما أنه تحريف لعقيدة الجزاء فى المفهوم الإسلامى حيث يذهب هؤلاء إلى أن التناسخ

---

(١) الجاثية ٢٤

(٢) د/ صالح السامرائى الغلو والفرق الغالية ص ١٢٩

(٣) الأشعرى — مقالات الإسلاميين جـ ١ ص ١١٩

إنما هو على سبيل الثواب والعقاب[1] ، وهو فى الإسلام حساب يعقبه ثواب وعقاب روحيان وبدنيان وقد كان لهذه العقيدة دعاتها الذين ينتسبون للإسلام نفاقاً من أمثال أحمد بن حابط وأحمد بن نانوس تلميذه وأبى مسلم الخراسانى [١٠٠ — ١٣٧] ومحمد بن زكريا الطبيب [٢٥١ — ٣١١ هـ][2] .

ونلاحظ أيضاً أن بعض فلاسفة المسلمين مثل ابن سينا[3] قد وقعوا فى اضطراب فى عقيدة البعث من حيث كيفيتها وذلك بسبب تأثير الفلسفة اليونانية حيث قرر أن البعث يكون روحيا فقط مقتدياً بذلك بآراء الفلاسفة اليونانيين وهذا الاعتقاد يخالف نصوص القرآن كما أن اعتبار الثواب والعقاب روحيين يخالف أيضاً ظواهر النصوص القرآنية والأحاديث وقد كفر الإمام الغزالى الفلاسفة فى المسألة ورد عليهم فى كتابه التهافت]

ما هى أساليب التحدى

إن الذين روجوا أفكار مضادة للعقيدة الإسلامية فى البيئة الإسلامية استخدموا أساليب متعددة نذكر منها على سبيل المثال :

١ — الأسلوب الإخبارى . ٢ — الأسلوب الفلسفى .

٣ — الأسلوب الذوقى

٤ — الأسلوب الإخبارى

وهو أن يقصد المخالف إلى ابتداع أخبار تتعلق بمسائل العقائد وتشتمل على ما يوافق اعتقادهم ويخالف المعتقد الإسلامى أو نقلها من مصادر أديانهم ومذاهبهم ثم يقحمونها ضمن المصادر التى يتجه إليها المسلمون لتصور

---

(١) ابن حزم — الفصل جـ ١ ص ٧٢

(٢) ابن حزم الفصل جـ ١ ص ٧١

(٣) أنظر كتاب النجاة ص ٤٧٧ ط السعادة سنة ١٣٣١ هـ لابن سينا

عقيدتهم ، وخاصة الحديث الشريف ، وبذلك تصبح مضامين تلك الأخبار - على تصادم - ضمن المعتقد الإسلامى وما يعرف فى الثقافة الإسلامية بالإسرائيليات خير شاهد على صحة ما نقول فالاختيار الأحداث والقصص التى كانت رائجة بين اليهود فى التوراة، قذف بها جماعة ممن أسلموا منهم أو أظهر الإسلام إلى الحديث الشريف على أنها من أقوال الرسول ﷺ أو إلى تفسير القرآن على أنها من مدلولات آيات العقيدة وقصص الأنبياء على الأخص .

ويعد عبد الله بن سلام (٤٣ ه) ووهب بن منبه (٣٤—١١٤) وكعب الأحبار (٣٢ ه) لهم فضل السبق فى هذا المضمار .

ولعل كعب كان أمعن فى إدخال هذه الأخبار الإسرائيلية[1] ، فإنه كان مطلع على كتب الأقدمين وله تضلع فى هذا الشأن ، وكان منذ عهد عمر رضى الله عنه يعقد المجالس لقص القصص التى تصف مشاهد الجنة ، والنار على الأخص ، وما كان يستطيع حينذاك أن يوغل فى أخباره لتيقظ عمر ومراقبته ولكنه فى عهد عثمان استغل فرصة الاضطراب السياسى والاجتماعى وبدأ هو كما بدأ غيره فى تسريب الإسرائيليات إلى دائرة الحديث فظهرت الأحاديث التى تصف الله تعالى فى ذاته وأفعاله بما يدل على التجسيم والتشبيه والأحاديث التى تثبت قضايا الوصية والمهدية والغيبة والرجعة وغيرها مما يزخر به التوراة والتلمود ومهما يكن من أن بعض هؤلاء قد فعل مافعل بحسن نية بقصد الترغيب والترهيب فإن هذا العمل عموما يعد أسلوباً فى محاولة تحريف العقيدة الإسلامية .

وممن سلك هذا المسلك من غير اليهود بعض المنتمين إلى الزندقة[2].

---

(١) أنظر الدكتور محمد أبو شهبة دفاع عن السنة .

(٢) فى أصلها نسبة إلى كتاب « الزندافستا » كتاب الزرادشتيين ＝

فقد أخذوا يكيدون للإسلام ويلفقون الأخبار والأحداث المتعلقة بالعقيدة وغيرها ويدسونها فى الحديث يحكى ابن الأثير عن ذلك فيقول: فلما يئس أعداء الإسلام من استئصاله بالقوة أخذوا فى وضع الأحاديث الكاذبة وتشكيك ضعفة العقول فى دينهم ... فكان أول من فعل ذلك أبو خطاب محمد بن أبى زينب مولى بنى أسد ، وأبو شاكر ميمون بن ديصان صاحب كتاب الميزان فى نصرة الزندقة[١].

وممن نال شهرة واسعة فى هذا الميدان عبد الكريم بن أبى العوجاء الذى قال لما قبض عليه من قبل الخليفة العباس المنصور : (لئن قتلتمونى لقد وضعت فى أحاديثكم أربعة آلاف حديث مكذوبة مصنوعة[٢].

وربما تكون أهم الأسباب التى دعت هؤلاء المجتمعين على هدم العقيدة الإسلامية إلى اتخاذ الأسلوب القائم على الوضع والدس ما يأتى :

أولا : إن هذا أسلوب بليغ فى تحريفهم عقيدة العامة وضمان تحقيق ذلك فى أكبر عدد من النـــاس لأن العوام بسذاجتهم يستطيعون فهم الأخبار والحكايات التى تلقى اليهم لخلوها من التعقيد الفلسفى والعمق الفكرى والعوام مهتمون ومتشوقون لكل ما فيه مبالغة وتهويل مما يخص

= ثم أطلقت على الانحراف عن عقيدة الإسلام مع الكيد لها ادعى زردشت أنه نبى وأن الله أنزل عليه كتابا يسمى الأفستا أو الإيستا وعرب فقيل الإيستاق فى الفارسية الأساس أو الأصل وعلى هذا الكتاب شرح يسمى (زندافستا أو زندايستا) .

ويقول الشهرستانى عن هذا الكتاب ، وله كتاب قد صنفه وقيل أنزل ذلك عليه وهو (زندوستا) الملل والنحل ص ٤٣

(١) ابن الأثير — الكامل حـ ٨ ص ٢١

(٢) الشريف المرتضى — الأمالى حـ ١ ص ١٢٨

موضوعات وأشخاصا تحظى لديهم بقداسة ، فإذا ما ألقيت إليهم أحاديث من هذا النوع أرضت نفوسهم صدقوها وآمنوا بها واعتقدوها على حساب معتقدهم الإسلامى الصحيح .

ثانيا : إن اليهود وهم أهم المستعملين لهذا الأسلوب والسابقون إليه لم يكونوا فى العهد الإسلامى الأول قد فلسفوا عقيدتهم ولا أنشأوا فيها علما عقليا كعلم اللاهوت المسيحى أو علم الكلام الإسلامى بل كانوا يحافظون على عقيدتهم على وجهها الخبرى فيساعدهم على ذلك مسلكهم الانعزالى ولم ينشا عندهم البحث العقلى فى العقيدة إلا بعد نشوء علم الكلام الإسلامى فتأثروا بهذا العلم فى أساليبه وحججه كما يثبت ذلك الفيلسوف اليهودى موسى بن ميمون[1] . ولذلك فلم يكن اليهـــود فى أول العهد يستطيعون أن يقحموا عقائدهم فى العقيدة الإسلامية باسلوب عقلى فلسفى يناقش قضايا العقيدة الإسلامية ويثبت العقيدة اليهودية فلجاوا إلى ذلك الأسلوب الإخبارى .

٢ [الأسلوب الفلسفى]

وخلاصته أن المخالفين يعملون على هدم المعتقد الإسلامى بالتحريف أو اللبس بالزيادة أو النقصان وإثبات معتقدهم باسلوب فلسفى يقوم على الأدلة العقلية والبراهين الفلسفية .

وقد عنى المسيحيون بهذا المسلك حيث أسسوا لهم قبل ظهور الإسلام علم اللاهوت الذى يقوم بشرح قضايا عقائدهم والبرهنة عليها .

---

(١) د/ على سامى النشار نشاة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ ١ ص ٧٥ .

وكان هذا العلم يقوم على القواعد المنطقية الأرسطوطاليسية ويعتمد على نتاج الفلسفة اليونانية .

فالفكر اللاهوتي المسيحي كان منذ القرون الأولى لظهور المسيحية قد اتخذ لنفسه عبارة يونانية ، ثم إنه نشأ وتطور في البيئة اليونانية بثقافتها وحضارتها ، ولقد كان معظم الآباء في الكنيسة الشرقية متشبعين بالفلسفة اليونانية وكان عدد منهم مثل يوستينوس في القرن الثاني وغريغوريوس في القرن الرابع كانوا فلاسفة قبل أن يصبحوا لاهوتيين[1] .

يشير أوليرى إلى هذا المعنى فيقول : [إن الفلسفة الإغريقية السائدة قد سيطرت تماما على لاهوت الكنيسة فكان من الضروري أن يعبر عن قضايا اللاهوت بعبارات ملائمة تماما الفلسفة][2] .

وقد استعمل هذا الأسلوب بأكثر وضوح في قضية المسيحيين الأولى وهي قضية الأقانيم بما تشمل من مسائل الجوهرية والحلول وطبيعة المسيح فإن المسيحيين قد درسوا في الفلسفة اليونانية مسألة الجوهر والفيض والنفس وأحكامها والعقل وأنواعه وجعلوا من بعض الآراء فيها مقدمات انطلقوا منها لتأييد عقيدتهم فكلمة الله التي هي المسيح قد جعلها أريوس بمعنى عقل الله ، وعلاقة الأبوة بين المسيح والله قد فسرها بعضهم بالفيض وجعلوه فيضا أزليا لإثبات أزلية المسيح وهو على غرار الفيض الأفلوطيني ، وتفسيرات طبيعة المسيح من كونه لاهوتا صرفا أو ناسوتا صرفا أو مزيجا منهما قد استفاد من دراسة النفس في الفلسفة اليونانية .

---

(١) لويس غردى وجورج قنواتي — فلسفة الفكر الديني بين الإسلام والمسيحية جـ ١ ص ٧٩ ترجمة صبحي الصالح وآخرين .

(٢) ديلاسي أوليرى — الفكر العربي ومكانه في التاريخ ص ٤٦ ترجمة تمام حسن .

وقد استخدم المجوس الأسلوب الفلسفى فى شروحهم لمبدأ الاثنينية وفى الاستدلالات التى ساقوها لإثبات الإلهين القديمين وقد بدا فى ذلك واضحاً تأثرهم باللغة اليونانية ومنطقها فزدك نجده يرجع الأصلين القديمين للعالم عند سابقيه النور والظلمة إلى أصول ثلاثة : الماء والنار والأرض، اختلطت فحدث من اختلاطها على نسب متساوية مدبر الخير ومدبر الشر، وهذه الأصول مما قال به فلاسفة اليونان الطبيعيون[١] ، وإن الأدلة التى ساقها أصحاب الاثنين لإثبات الاثنينية ليظهر فيها واضحاً التأثر بالمنطق اليونانى ويتضح هذا فى قولهم مثلا : [قد ثبت أن يكون الفاعل الواحد خيراً شريراً يتنافى كتنافى كونه عالماً بالشىء جاهلا به فيجب أن يكون الفاعل للخير غير فاعل للشر[٢] .

وقولهم : لو صح كون الفاعل الواحد خيرشريراً لصح كونه ممدوحا مذموما مستحقا للتعظيم والتبجيل والاستخفاف والإهانة فإذا تضاد ذلك وجب استحالة كونه خيراً شريراً فيجب لذلك إثبات فاعلين وأصلين أحدهما يكون منه الخير والآخر يكون منه الشر[٣] .

وفى أديان الهند وخاصة البراهمة نلاحظ أنهم قد اتخذوا فى إثبات معتقدهم الأسلوب الفلسفى المنطقى وعلى وجه الخصوص فى مسألة إنكار النبوة ومثل ذلك قولهم : [لو صحت النبوات لوجب أن يجوز أن يوجبوا ما ليس فى العقل وجوبه بل ما يقتضى العقل قبحه كنحو الصلاة والصيام إلى ما شاكل ذلك وأن يحرموا ما تقرر فى العقل حسنه كالمنافع واللذات،

---

(١) د/على سامى النشار نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام جـ١ ص ٢٥١.
(٢) القاضى عبد الجبار ، المغنى فى أبواب العـــدل والتوحيد جـ ٥ ص ٢٦ .
(٣) المرجع نفسه جـ ٥ ص ٤٧ .

وأن يبيحوا ما يحظرا العقل كذبح البهائم إلى ماشاكله وذلك مخالف لما فى العقول وإنما يجوز من الحكيم أن يبعث رسوله بما لا يخالف مايجرى الشاهد :

لأن الرسول ومايعلم من قبله مع العقل المرتب الذى لايزايله بمنزلة الغائب مع الشاهد . وإنما جوز الإرسال إلى العاقل ليعرف ويمتثل لأجل عقله المرتب القائم ، فكيف يجوز أن يرد بخلاف ما يتضمنه ويقتضيه ؟.

فهذا سبيل فساد القول بالبعثة](١) .

وإذا كانت العقيدة الإسلامية قد واجهت المطاعن بالأسلوب الفلسفى فى الفكر الدينى وعلى الأخص المسيحى فإنها قد واجهت هذا الأسلوب فى صورة أعتى وأشد فى تحديات الأفكار اليونانية التى تتلاقى معها فى الموضوع وذلك لأن الأسلوب الفلسفى المنطقى إنما قد أساسا لإخراج النتاج العقلى اليونانى فاكتسب من ذلك القوة والاستحكام فى حين أنه استعمل فى إخراج العقائد المسيحية وغيرها على وجه الاقتباس .

لقد كانت الفلسفة اليونانية مناقضة فى عموم مواضعها الميتافيزيقية للعقيدة الإسلامية .

وعلى سبيل المثال صورة الله عند أرسطو الذى كانت آراؤه أكثر رواجا فى العالم الإسلامى ، فهو عنده العقل الأول والواحد من كل وجه والمحرك الذى لا يتحرك والذى يترك العالم وشأنه بعد تحريكه الأول دون العلم بما يجرى فيه من الجزئيات وعنده أيضاً أن هذا العالم أزلى قديم والبعث للأرواح فقط والثواب والعقاب لاتنالها إلا الأرواح دون

---

(١) السابق جـ ١٥ ص ١١٢ — ١١٦ .

الأبدان بحسب ما حصلت من العلم والتقوى والبعد عن شهوات البدن وكل هذه المبادىء كانت مصاغة في أسلوب منطقي .

وقد قابلت عقيدة الإسلام الفلسفة اليونانية منذ بدء غزوات المسلمين في مختلف البلاد وكانت تقاوم العقيدة الإسلامية بأسلوبها العقلي المنطقي سواء عن كيد وبغية هدم وتحطيم كما كان يفعل مناطقة النصارى لما اعتقدوا أن هذه الفلسفة إذا نقلت إلى المسلمين ستكون إحدى الوسائل لتقويض العقائد الإسلامية ، أو عن حسن نية كما تمثل في محاولة التوفيق بين الفلسفة والدين مثل ما فعل الفلاسفة الإسلاميون من أمثال الفارابي وابن سينا وابن رشد .

٣ — الأسلوب الذوقي

من أكبر الطعون وأخطرها تلك التي توجهت إلى العقيدة الإسلامية عن طريق الاسلوب الذوقي .

ويظهر هذا الاسلوب في محاولة هدم المسائل العقدية وتمرير مفاهيم مناقضة لها على طريقة ذوقية روحية يحصل فيها التصديق بالمفاهيم بنوع من الكشف المباشر الذي تلقى فيه الأفكار في النفس القاء في غيبة المقاييس العقلية .

وهذا الاسلوب يتمثل في اتجاهين متشابهين إلى حد التداخل في كثير من الاحيان هما التصوف والغنوص ويقوم التصوف على فكرة تطهير النفس وتصفيتها من شواغل المادة للاقتراب بذلك شيئاً فشيئاً من الحق (الله) ثم الوصول إليه فتحصل حينذاك السعادة ونيل الحقيقة العظمى .

وتتعطل كل المفاهيم والاعتبارات العادية والعقلية والشرعية ، ولهذا التصوف جانب عملى يقوم على أعمال وتراتيب صارمة ويستخدم فى سلوكه منهجى التخلية والتحلية) .

وأما الغنوص فهو لفظة يونانية الأصل معناها المعرفة ثم أخذت إصطلاحا معنى المعرفة الكشفية .

ويقوم الغنوص على فكرة الصراع العارم فى الإنسان بين قوى الخير فيه وقوى الشر والنفس الإنسانية تروم من هذا الصراع الخلوص من دواعى الشرور والرجوع إلى خلقتها الخيرة إلا أن هذه الفكرة قد تلونت حسب الأديان والمذاهب التى تبنتها وإن حافظت على مبدئها الأساسى .

وقد تضافرت جهود التصوف الغالى وجهود الغنوصية فى نقض العقيدة الإسلامية وكان هذا مدخلا عريضا لكثير من الكائدين للإسلام ليقذفوا بمبادىء تهدم كيانه النظرى والعملى وذلك مثل أفكار الاتحاد والحلول ووحدة الوجود ووحدة الأديان وتعطيل ظاهر الشريعة وتأليه بعض الأشخاص ونكران البعث وكل ذلك بسلوك مسلك التزهد والخلوة وقهر الجانب المادى الذى هو شر وإحياء الجانب الروحى للوصول إلى السعادة وهناك بعض العوامل التى ساعدت هذا الأسلوب على التحريف منها أن كثيرين ممن دخلوا الإسلام من أهل الديانات المختلفة وعلى الأخص ديانات الفرس والهند كان عندهم استعداد وقابلية لتقبل هذه الطريقة وذلك بسبب الرواسب التى ورثوها عن الآباء والأجداد فاستغلت فيهم هذه القابلية وأزلقت إليهم التحريفات التى نراها عند الحلاج والسهروردى وابن المقفع وبشار بن برد وأبى العتاهية وبابك الخرمى وهذا المسلك له آثار خطيرة حيث يبدأ بظاهر سليم لا يلفت الإنتباه ولكنه يصل إلى أوخم العواقب .

وقد وصف هذا الخليفة المهدى لإبنه موسى الهادى فى وصايته له

بمكالحة أهل هذا الأسلوب قائلا إن صار لك هذا الأمر فتجرد لهذه العصابه يعنى أصحاب مانى فإنها فرقة تدعو إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة ثم تخرجها إلى تحريم اللحم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجا وتحوبا ثم تخرجها من هذه إلى عباده اثنين : أحدهما النور والآخر الظلمة[1] .

(١) الطبرى تاريخ الطبرى جـ ٨ ص ٢٣٠

علم الكلام فى مواجهة التحديات

إن التحديات السالفة لهى من الحدة والتركيز بحيث تشكل خطراً حقيقياً على العقيدة الإسلامية .

وبإزاء هذا الوضع الجديد وجد المسلمون أنفسهم مضطرين إلى أن يدخلوا فى حوار عميق مع هذه الأقوام من يهود ونصارى ووثنيين ولما كان الكثير من هؤلاء قد تفلسفت عقولهم فإنه لم يكفهم فى الإقناع أن تذكر لهم الآيات والأحاديث بل يريدون الرجوع إلى قضايا تستند على القدر المشترك من العقل واضطر ذلك المتصدين لهم من المسلمين أن يدخلوا فى منهجهم ويسلكوا سبيلهم ويؤلفوا الأدلة العقلية على حقائق العقيدة الإسلامية)[1].

وبهذا كله نشأ علم الكلام فى مسائله وأساليبه مواجهة للتيارات الفكرية الواردة على العقيدة الإسلامية .

ومن الجدير بالذكر أن الشبة الواردة على العقيدة لم تكن فى خطرها على هذه العقيدة متساوية بل إن منها الطاعن فى صميم الأصول العقائدية ومنها الذى يمسها مسا خفيفا كما أن منها ماهو أكثر قابلية للتأثير لذاته أو الظروف المحيطة ومنها ماهو أقل من ذلك ولذلك فإن الردود على هذه الشبه لم تكن متماثلة لا فى نوعها ولا فى حجمها بل هى مختلفة باختلاف الخطورة .

والمتكلمون بذلوا جهدا كبيرا فيما يتعلق بالتوحيد على أساس أن التوحيد هو رأس الحقائق فى العقيدة الإسلامية ولهذا فإن مبحث

---

(١) أحمد أمين ضحى الإسلام حـ ٢ ص ١٧

الوحدانية ومبحث الذات والصفات ومبحث كلام الله قد نالت جزءاً كبيراً فى علم الكلام وخاصة عند المعتزلة نظراً لأن المناوئين للعقيدة الإسلامية . قد ركزوا جهودهم على أن يجروا التوحيد الإسلامى إلى التركيب والتعدد أو مايشبه التعدد ،

ومما نال اهتمام المتكلمين قضية تنزيه الله تعالى عن الجسمية ومشابهة الحوادث والاتحاد والحلول .

كما أن قضية النبوة قد احتلت مكانا مرموقا فى علم الكلام وذلك باعتبار أن الإيمان بها مفتاح للإيمان بحقائق الدين كلها فإذا مافازت الدعوة المعادية لإنكارها فإن الضرر بالعقيدة سيكون بالغاً .

وسائل المواجهة فى علم الكلام وأساليبها

لقد استخدم المتكلمون وسائل متعددة لمواجهة التحديات الواردة على العقيدة من قبل الخصوم منها :

المناظرة — التأليف .

١ — المناظرة .

كانت المناظرة المباشرة الطريقة المفضلة لدى المتكلمين وبخاصة فى القرون الأولى لما تتميز به من الحيوية والطرافة من جهة ولما تؤدى إليه من الهزيمة العقلية والنفسية معاً عند قطع الخصوم مما يكون له أثر فى نفوس الناس يصحبه استصغار للآراء المقطوعة وهو مايكون دافعا للابتعاد عنها .

وقد لمع فى المناظرات متكلمون من المعتزلة والأشاعرة والماتريدية

وكثيراً مايعقدون المجالس لمناظرة أهل الديانات من اليهود والنصارى والزنادقة وغيرهم ويناقشونهم فى مدعياتهم من المسائل التى تخالف مسائل العقيدة الإسلاميه ولم يقتصروا على المجالس التى يعقد فيها المناظرات مصادفه بل كانوا يسافرون إلى الأماكن البعيدة لمناظرة زنديق أو دهرى لامع... فواصل بن عطاء المعتزلى قد [أنفذ إلى المغرب عبد الله بن الحارث وأنفذ إلى اليمن القاسم بن الصعدى وإلى الجزيرة أيوب بن الأوثر وإلى خراسان حفص بن سالم وأمره بلقاء جهم ومناظرته وإلى الكوفة الحسن ابن ذكوان][1].

وقد كان أبو منصور الماتريدى يرد إلى البصرة من سمرقند ليناظر أهل البدع والاهواء فيها حتى زادت زياراته اليها على العشرين[2].

وقد حفظت لنا كتب الفرق والتاريخ شيئا كثيرا من المناظرات بين المتكلمين وبين أهل الديانات والبدع وكثيرا ما كانت هذه المناظرات تنتهى باقتناع الخصوم ودخولهم إلى الإسلام ومن ذلك مايروى من أن مجوسيا اسمه (ميلاس) جمع بين أبى الهذيل العلاف وجماعة من الثنوية فقطعهم أبو الهذيل فاسلم ميلاس عند ذلك][3].

---

(١) أبو القاسم البلخى — مقالات المسلمين باب ذكر المعتزلة ص ٦٦ — ٦٧ وأنظر ابن المرتضى المنية والامل ص ٣٢ — ٣٣

(٢) المنية والامل ابن المرتضى ص ٣١

(٣) ابن خلكان وفيات الاعيان ج ٤ ص ٢٦٦

أنظر فى هذه المناظرات المينية والامل لابن المرتضى وطبقات المعتزلة القاضى عبد الجبار .

٢ — التأليف

قاوم المتكلمون التحديات الواردة على العقيدة بالمناظرة كما ذكرنا وإذا لم يتوافر الوقت المناسب للمناظرة أو كانت تستدعى الادلة المنمقة والدراسة المعمقة والادلة المرتبة فإن المواجهـــة تتخذ طريق الردود المكتوبة إما بتأليف كتب مستقلة أو عقد فصول خاصة فى غضون الكتب ذات الأغراض الأخرى ويكاد يكون ما ألفه المتكلمون فى هذا الشأن لا يحصر من هذه التآليف .

كتاب الرد على الزنديق اللعين ابن المقفع] القاسم بن ابراهيم[١] (٢٤٦ هـ) ورسالة فى الرد على النصارى للجاحظ وكتاب «التنبيه والرد على أهل الاهواء والبدع) لابى الحسين الملطى ، وكتاب الانتصار والرد على ابن الراوندى الملحد للخياط المعتزلى وكتاب : فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة] للغزالى .

وإذا كان أصحاب التحديات قد استخدموا أساليب متعددة فإن المتكلمين أيضا كانوا يكيفون أساليبهم فى تناول المسائل الكلامية بحسب الاساليب التى توجه بها الطعون اليها .

ومن الممكن حصر الأساليب التى استخدمها المتكلمون فى نوعين :

نقلى ، وعقلى .

١ — الاسلوب النقلى :

من المعلوم أن القرآن الكريم والسنة النبوية هما المصدران الأساسان

---

(١) المنية والامل لابن المرتضى ص ٣٤

اللذان استمد منهما المسلمون تصوراتهم العقدية. فلقد فصلا مسائل العقيدة وأشارا اليها إشارات بليغة لذا لا نعجب إذا وجدنا أن علماء المسلمين يلوذون اليهما كلما ورد عليهم من الآراء ما فيه دغل فيتأملون فى الآيات والأحاديث ليقايسوا بها الافكار التى يثيرها الخصوم وليظهروا وجه المخالفة لتلك الآراء للعقيدة الصحيحة ويقيموا الأدلة على بطلانها .

ومن هذا المسلك تكون أسلوب من أساليب المتكلمين فى الرد على الشبه وهو الاسلوب الذى يعتمد فى الرد على الاستدلال بالنصوص الصحيحة ونقض النصوص المشبوهة من اسرائيليات وأحاديث ضعيفة ومكذوبة ولذلك فقد كان لهذا الأسلوب وجهان :

الوجه الأول : هو أن يناقش الرأى الوارد على مسألة من مسائل العقيدة من قبل الخصوم بعرضه على النصوص القرآنية والاحاديث الصحيحه التى تناولت هذا الموضوع فيتضح مخالفته لها فيقبح رده باعتبار أنه مناقض لما جاء فى مصادر العقيدة الصحيحة ويشير أبو سعيد عثمان الدارمى — ٢٦٠ هـ إلى ذلك فيقول : ما ظننا أن نضطر إلى الاحتجاج على أحد ممن يدعى الإسلام فى إثبات العرش والايمان به حتى ابتلينا بهذه العصابه الملحدة فى آيات الله فشغلونا بالإحتجاج لما لم تختلف فيه الامم قبلنا » .

وقد حقق الله العرش فى آى كثيرة من القرآن فقال تعالى : خلق السماوات والارض فى ستة أيام وكان عرشه على الماء[1] .

وفى الرد على الثنوية الذين يقولون بوجود الهين يقول أبو الحسين

---

(١) سورة هود آية رقم ٨ أنظر الرد على الجهمية ضمن كتاب عقائد السلف أ.د / على سامى النشار وعمار طالبى صـ ٢٦٣

الملطى : [زعموا أن الله تعالى خلق الروح الجارى فى الجسد ، فقالوا : ألا ترى الروح إذا فارق الجسد أنتن ، وأن الخالق الآخر عندهم خلق الجسد والله لايخلق نتناً ولا قذراً فجعلوا للخلق كلهم خالقين تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً وقد قال الله عز وجعل فى كتابة : ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون)[1] .

الوجة الثانى :

هو أن يطعن فى صحة الأخبار التى يسوقها الذين يقصدون الطعن فى العقيدة الإسلامية وخاصة اليهود والزنادقة ، فيقع تبيين أن تلك النصوص ليست صحيحة النسبة إلى من نسبت إليه فتسقط حجيتها وبالتالى يسقط ما احتج بها عليه ومن ذلك ما قاله الدرامى فى مناقشته لبشر المريسى (٢١٨م) .

المتهم بالزندقة [وأما مارويت عن ابن الثلخى من غير سماع منه حيث السدى عن أبى مالك عن ابن عباس فى قوله: الرحمن على العرش استوى قال : ارتفع ذكره وثناؤه على خلقه ، وعن ابن عباس أنه قال « استوى له أمره وقدرته فوق بريته) . . فيقال لك : أيها المعارض لو قد سمعت هذا من ابن الثلجى لما قامت لك به حجة فى قيس تمرة، وهذه الروايات كلها لا تساوى بعرة وما يحتج بها فى تكذيب العرش إلا الفجرة وأدل ما فيه من الريب أنه ترويه عن ابن الثلجى المأبون المتهم فى دين الله والثانى عن الكلبى هو ابن عم الثلجى وعن جويبر ولو صح ذلك عن الكلبى وجويبر من رواية سفياى وشعبة وحماد بن زيد لم تكترث بها لأنهما

---

(١) سورة المؤمنون آية ٥٢ — أنظر الملطى التنبية والرد على أهل الأهواء والبدع ص ٩٢

مغموزان فى الرواية لا تقوم بهما الحجة فى أدنى فريضة فكيف فى إبطال العرش والتوحيد][1] .

[قد يقطع الظن فيما ذهب إليه المخالفون من تأويل لبعض الآيات أو الأحاديث الموثوق بها فيكون فساد التأويل مؤدياً إلى فساد الرأى الذى لأجله وقع التأويل يقول محمد بن إسماعيل البخارى (٢٥٦هـ) .

[احتج هؤلاء (القائلون بخلق القرآن) بآيات وليس فيما احتجوا به أشد التباساً من ثلاث آيات ، قوله : « وخلق كل شيء فقدره تقديراً »[2]

فقالوا : إن قلتم إن القرآن لا شيء كفرتم ، وإن قلتم إن القرآن شيء فهو داخل فى الآية .

قال أبو عبيدة : أما قوله (وخلق كل شيء) فهو كما قال ، وقال فى آية أخرى (إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون[3] .

فأخبر أن أول خلق خلقه بقوله . وأول خلق هو من الشيء الذى قال : وخلق كل شيء) فأخبر أن كلامه قبل الخلق[4] .

والأسلوب النقلى أسبق الأساليب الكلامية ظهوراً لأنه أنشىء لمواجهة حركة الإسرائيليات ووضع الحديث التى ظهرت فى وقت مبكر وأكثر

---

(١) الدرامى — كتاب الرد على المريسى (ضمن عقائد السلف ص ٤٤١

(٢) سورة الفرقان آية ٢

(٣) سورة النحل آية ٤٠

(٤) البخارى — كتاب خلق أفعال العباد (ضمن كتاب عقائد السلف ص ١٣٥

استعماله كان فى قضايا التشبيه والتجسيم وفى الوصية والرجعة والعصمة وذلك لأن هذه القضايا هى التى كانت أكثر عرضة للوضع والتأويل واستعمل هذا الأسلوب أهل السلف من الأئمة والفقهاء والمحدثين الذين يتمسكون بالنصوص فى إثبات العقيدة وعلى هذا المسلك قام أبو حنيفه بتأليف كتابه « الفقه الأكبر » .

وألف مالك بن أنس رسالة « الرد على القدرية » وأحمد بن حنبل كتابه الرد على الزنادقة والجهمية فيما شكت فيه من القرآن .

وألف البخارى « كتاب خلق أفعال العباد » وألف عبد الله بن مسلم ابن قتيبة « كتاب الإختلاف فى اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة .

وألف أبو سعيد الدارمى [كتاب الرد على الجهمية] و [كتاب الرد على المريسى » ولم يفقد هذا الأسلوب قيمته رغم ظهوره المبكر بل بقى مستعملا فى علم الكلام إلى جانب ما استجد من أساليب حتى إنه يكاد لا يخلو منه مؤلف فى هذا العلم حتى يومنا هذا .

٢ — الأسلوب العقلى :

لقد أصبح المسلمون ابتداء من منتصف القرن الثانى يواجهون فى عقيدتهم هجومات وطعونات تجاوزت الإستدلالات النصية إلى استدلالات عقلية قائمة على قواعد فكرية عامة وقوالب منطقية معينة مستغلة لبعض ما توصل إليه الفكر الفلسفى فى البحوث الطبيعية وماوراءها تستعمل منها مقدمات لأثبات الميتافيزيقية وقد وردت هذه الأساليب فى هجومات المسيحيين الذين كانوا قد أسسوا لهم علماً لاهوتياً متكونا على الإستدلال العقلى مستمداً من الفلسفة اليونانية كما قد وردت بصفة أشد فى الفلسفة اليونانية التى تبناها بعض الإسلاميين مستعملين المقدمات

الفلسفية والأسلوب المنطقى اليونانى مع قدرة على الجدل والمناظرة وبإزاء هذا الوضع فإن الأدلة النقلية التى استعملها المتكلمون فى فترة سابقة لم تعد كافية لاقناع الخصوم والزامهم الحجة فدعت الحاجة إلى إنشاء أسلوب فى الدفاع يناسب أسلوب الهجوم وأن تجدد الأدلة بتجدد الوجه الذى يطرح عليه أولئك الخصوم الشبه .

وكان المعتزلة ذوو النزعة العقلية من السابقين لتجديد أسلوب الدفاع وادخال العنصر العقلى فيــه وعضدهم بعد ذلك الأشاعرة ابتداء من أبى الحسن الأشعرى وأبى منصور الماتريدى الذى استحدث كل منهما طريقة فى الإستدلال تقوم على العنصر العقلى المدعم للعنصر النقلى أدت به إلى أن أصبح رأس اتجاه متميز .

ومن الجدير بالذكر أن هذا الأسلوب العقلى هذا كان فى أول أمره يقوم على أسس وضوابط مستمدة فى عمومها من خصوصيات الفكر الإسلامى وهى مستفادة من القياس الأصولى الذى وضعه الإمام الشافعى لعــلم أصول الفقه وهى ضوابط متعددة تقتصر على ذكر أهمها فيما يأتى :

الطريق الأول :

قياس الغائب على الشاهد بمعنى أننا نقيس الغائب على الشاهد و نعطيه حكمه لجامع بينهما والجوامع أربعة :

الجمع بالعلة ، والجمع بالحقيقة ، والجمــع بالشرط ، والجمع بالدليل ،

ومثال ذلك ما استدل به الأشاعرة على ثبوت صفة العلم لله تعالى

زائدة عن ذاته فى قولهم : لاشك أن علة كون الشىء عالما فى الشاهد هو العلم فكذا فى الغائب وحد العالم ههنا من قام به العلم فكذا حده هناك وشرط صدق المشتق على واحد منا ثبوت أصله فكذا شرطه فيمن غاب عنا[1] .

الطريق الثانى : إنتاج المقدمات النتائج :

وذلك كاستدل إمام الحرمين الجوينى على حدوث العالم بقوله : أن أجرام العالم وأجسامه لاتخلو عن الأعراض الحادثة ومالا يخلو عن الحادث حادث[2] .

فنلاحظ أن الإستدلال تم بمقدمة واحدة ثم تم استخراج النتيجة منهـــا .

الطريق الثالث :

الإستدلال بالمتفق عليه على المختلف فيه وذلك كقياس الالوان على الاكوان فى استحالة تعرى الجواهر عنها أو الاكوان أربعة : الإجتماع والإفـــتراق ، والحركة والسكون والاجسام أو الجواهر لا تخلو عن الاكوان . فقالوا . إن الالوان لا تخلو الجواهر عنها قياساً على الاكوان .

---

(١) الجرجانى — شرح المواقف جـ٣ ص ٣٤٤

(٢) الجوينى لمع الادلة ٧٧

الطريق الرابع : السبر والتقسيم :

وهو إما أن يكون منضبطا بين النفي والإثبات أولا يكون بمعنى أن نورد في القضية المبحوثة كافة الاحتمالات العقلية ثم تناقش تلك الاحتمالات واحداً واحداً وتبطل بالأدلة وينفي احتمال واحد لا يرد عليه الابطال فذلك هو الذي يكون حقاً أو تبطل جميعها فيكون القضية باطلة .

مثال ذلك ماذكره إمام الحرمين بقوله : وأما المرقونية (فرقة من الثنوية) القائلون باثبات المعدل فوجه الرد عليهم في إثبات حدث الاجسام وتخصيصهم بكلام فنقول : هذا المعدل لا يخلو إما أن يكون موافقا للنور أو يكون موافقاً للظلمة ، أو يكون مخالفاً لهما ، فإن كان موافقاً للنور فهو من النور ومن حكمه منافرة الظلام وإن كان مماثلا للظلام فهو منه ومن طبعه منافرة النور وإن كان منافرا لهما فلابد من تقدير معدل بينه وبينهما كما لابد من تقدير معــدل بين النور والظلام ويتسلسل القول إلى ما لا نهاية] (١).

الطريق الخامس : الإلزام :

وهو استدراج الخصم إلى نتيجة مخالفة لمدعاة بتسليمه بمقدمات تلزم عنها تلك النتيجة ، ومثال ذلك ما استعمله النظام لإبطال القول بالاثنينية في مجادلته للمانويه كما روى ذلك الخياط قال : [قال لهم: حدثونا عن إنسان قال قولا كذب فيه . من الكاذب ؟ قالوا : الظلمة ، قال فإن ندم بعد ذلك على مافعل من الكذب ، وقال : قد كذبت وقد أسأت . من القائل : قد كذبت ؟ فاختلطوا عند ذلك ولم يدروا مايقولون ، فقال لهم إبراهيم : زعمتم أن النور هو القائل قد كذبت وأسأت فقد كذب لأنه لم يكن الكذب

(١) الجويني — الشامل ص ٢٤٣ — ٢٤٤

منه ولا قاله والكذب شر ، فقد كان من النور شر وهذا هدم قولكم وإن قلتم إن الظلمة قالت قد كذبت وأسأت فقد صدقت والصدق خير فقد كان من الشيء الواحد شيئان مختلفان خير وشر على حكمكم ، وهذا هدم قولكم بقدم الاثنين[1] .

أن هذه الطرق استخدمها علماء الكلام كأسلوب عقلي في الرد على الهجمات التي وجهت إلى العقيدة من قبل الخصوم وبقيت لها آثار في علم الكلام فيما بعد ذلك على الرغم من التعديلات التي أدخلت عليها من جراء الانتقادات التي وجهت إليها .[2] .

وحين زادت المواجهة بين علماء الكلام وبين الفلاسفة ابتداء من القرن الرابع اضطر علماء الكلام أن يضيفوا إلى طرقهم عناصر من الفلسفة من قسمي الطبيعيات والمنطقيات رأوها صالحة لأن يصاغ منها الأدلة التي تبطل شبه الفلاسفة والفلسفة باستخدام نفس السلاح وكما عودنا المعتزلة بالسبق في مضمار استخدام الأسلوب العقلي فإنهم كانوا سباقين في وضع بذرة الأسلوب الفلسفي .

نرى هـــذا عند كثيرين من رجالات المعتزلة نخص بالذكر ابراهيم النظام (٢٣١ هـ) حيث اطلع على كثير من كتب الفلاسفة[3] واستفادوا من دقائق معانيها وأساليب جدلها وقواعد منطقها قاصدين بذلك إلى أن يقوموا [بأشد ما احتاج إليه الإسلام في ذلك العصر وهو الاستعانة بما

---

(١) الخياط — الانتصار ص ٣٠-٣١

(٢) انظر هذه الطرق بالتفصيل في مناهج البحث عند مفكري الإسلام ص ١٢٩ — ١٣٠ د / علي سامي النشار .

(٣) ابن نباتة — سرح العيون ١٥٣

استعانت به الأديان المحيطة به كلها من أسلوب متين وطريق فلسفي لإبراز ما كمن في الدين من القوى والفضائل ... وليظهر الإسلام في مظهر التحدى ويفوز ماأرادنوزه](١) وذلك بالدفاع عن عقائده التي هي أساسه .

ويشير الجاحظ إلى أن أول عمل قام به المتكلمون في هذا المجال إنما هو وضع المصطلحات الفلسفية التي تعتبر من أدوات الجدل يقول : فاصطلحوا على تسمية مالم يكن له في لغة العرب اسم فصاروا في ذلك سلفاً لكل خلف وقدوة لكل تابع ، ولذلك قالوا العرض والجوهر وأيس وليس وفرقوا بين البطلان والتلاشي ، وذكروا الهذية والهوية والماهية وأشباه ذلك(٢) .

وتناولوا قضايا تبحث فيها الفلسفة مثل الجوهر والخلاء وكان لهم فيها آراء وهم في بحوثهم هذه لم يقصدوا البحث فيها لذاتها وإنما أرادوا أن يكونوا مقدمات لينتهوا منها إلى إثبات حقائق العقيدة كما هو الشأن لدى الفلاسفة الذين جعلوا نتائج بحوثهم الطبيعية مقدمات يصلون بها إلى إثبات آرائهم في الغيبيات .

والملفت للنظر أن المتكلمين الذين سلكوا مسلك الفلاسفة هذا قد أدخلوا المنطق الأرسطي في الاستدلال الكلامي وذلك ابتداء من القرن الخامس الهجري .

أن المتكلمين بعد استعمالهم لتلك القواعد العقلية الآنفة الذكر أكثر من ثلاثة قرون رأوا أن هذه القواعد لم تعد كافية لمجابهة الخصوم واقناعهم

---

(١) مقدمة الانتصار للخياط ص ٥٨

(٢) الجاحظ — البيان والتبيين ج ١ ص ١٠٦ نقلا عن ضحى الإسلام ج ١ د / أحمد أمين

وذلك لأن هؤلاء تكون الكثير منهم على عقلية تربت على المنطق الارسطى وهى مستعدة لان تقتنع به وحده فلقد كان المنطق اليونانى هو الغالب على الفكر فى ذلك الوقت حيث استخدمه فى مناهجهم المتأثرين بالفلسفة اليونانية خاصة والمسيحيون والمجوس واليهود ولمواجهة هذا الموقف واستخدام الأسلحة التى يستخدمها الخصوم اضطر المتكلمون أن يستعملوا المنطق الارسطى بشكل واسع منذ القرن الخامس حينما دعا الإمام الغزالى إلى استخدامه فى العلوم الإسلامية وخاصة فى علم الكلام ولاجل هذا أصدر فتوى نالت شهرة واسعة قال فيها بأن [من لايحيط بها (أى المقدمات المنطقية) فلا ثقة بعلومه أصلا](1)

وبعد الغزالى استخدم هذا الاسلوب فى مناظرات المتكلمين حتى أصبح هو المسيطر كما يتضح ذلك عند الفخر الرازى (٦٠٦ هـ) فى مؤلفاته الكلامية وعند عضد الدين الإيجى (٧٥٦ هـ) فى كتابه المواقف، وشارحه السيد الشريف الجرجانى (٨١٦هـ) وعند سعد الدين التفتازانى (٧٩١هـ) فى شرحه لعقائد عمر بن محمد النسفى (٥٣٧) وقد توسع بعض هؤلاء فى الاقتباس من الفلسفة ومنهجها حتى اختلطت فى كتبهم الفلسفية وعلم الكلام وكما قال ابن خلدون [التبس عليهم شأن الموضوع فى العلمين فحسبوه فيهما واحدا من اشتباه المسائل](2) . فنجد مثلا كتابا كالمواقف تخصص فيه المواقف الاربعه الاولى لمواضيع فلسفية، ويخصص الموقفان الاخيران فقط للإلهيات والسمعيات مع التعرض لآراء الفلاسفة فيهما وقد أدى هذا بالتدرج إلى غلبة أسلوب الفلسفة التقريرى الشرحى على أسلوب الكلام الجدلى الدفاعى ففقد خاصية الحركية والحيوية والوعى وأصبح جامدا عقيما(3)

---

(١) الغزالى . المستصفى جـ ١ ص ١٠

(٢) ابن خلدون المقدمة ص ٤٣٠

(٣) د / عبد المجيد النجار النشرة العلمية ص ١٥٩

وقد أشار إلى هذا المعنى ابن خلدون فى قوله: [ولقد اختلطت الطريقتان (طريقة الكلام وطريقة الفلسفة) عند هؤلاء المتأخرين من المتكلمين) والتبست مسائل الكلام بمسائل الفلسفة بحيث لا يتميز أحد الفنين من الآخر ولا يحصل عليه طالبه من كتبهم كما فعله البيضاوى فى الطوالع ومن جاء بعده من علماء العجم فى جميع تآليفهم إلا أن هذه الطريقة يعنى بها طلبة العلم للاطلاع على المذاهب والاغراق فى معرفة الحجاج لوفور ذلك فيها[1]

واختلاط علم الكلام بالفلسفة تجعل غايته تعليمية وليست دفاعية وهذا ما يشير إليه الشيخ محمد عبده فى قوله [هـــذا هو السبب فى خلط مسائل الكلام بمذاهب الفلسفة فى كتب المتأخرين كما نراه فى كتب البيضاوى والعضد وغيرهم وجمع علوم نظرية شتى وجعلها جميعها علماً واحداً والذهاب بمقدماته ومباحثه إلى ما هو قرب إلى التقليد من النظر فوقف عن التقدم.

نخاص من هذا أن علم الكلام قام على أساس المعرفة بالواقع الفكرى للخصماء من حيث الأفكار ومن حيث أسلوب التفكير والعرض ومن حيث أسلوب المواجهة بما يتفق مع طبيعة الموقف بمراعاة ما يرد من الاعتراضات فى موضوعها وأساليبها فيكون لكل مقام مقال ولكل طريقة فى الهجوم طريقة فى الرد تناسبها ولكل شبهة مهما كانت خفية الخطر ما يكشف عن خطرها ويرد كيدها.

---

(١) ابن خلدون — المقدمة ١٣٠ — ٤٣١

تحديات اليوم

فى العصر الحديث تواجه العقيدة الإسلامية تحديات كثيرة وخطيرة منها ما يعود إلى فلسفات قد ظهرت فى هـــذا العصر ومنها ما يعود إلى مواقف قد وقفتها مؤسسات كالكنيسة وذلك .

١ ــ نتيجة تحريف الإسلام النازل على سيدنا عيسى وتغيير الإنجيل ومزج العقيدة الصحية بالفلسفة اليونانية والعقائد الوثنية الرومانية مما أدى إلى التثليث .

٢ ــ وأيضاً طغيان الكنيسة خلال القرون الوسطى للميلاد وسيطرتها على شئون الدين والدنيا وإعتناقها لفلسفة أرسطو وإعتبارها جزءاً من العقيدة وتكفير معارضيها أو من يرى خطأها والحجر على حرية العلماء ومنعهم البحث العلمى الحر مما جعل أوربا فى القرن الخامس عشر الميلادى لاتزيد عن أوربا فى القرن الخامس قبل الميلادى فى ميزان التقدم العلمى شيئاً يذكر .

٣ ــ أدى ذلك إلى قيام صراع مرير بين رجال العلم فى أوربا وبين رجال الدين والكنيسة »[1] .

٤ ــ أستبدت الكنيسة وامتد طغيانها إلى العلماء من أمثال جاليليو وجرادنو برونو وكوبرنيك .

٥ ــ كان رد الفعل لدى العلماء إلى الشك فى عقيدة الكنيسة ودينها

---

(١) د . مصطفى حلمى دراسات فى الفكر الإســـلامى ص ٣٠٤ ط ١٩٨٢ م

ويهاجمون من خلالها الأديان عموما ومع التطرف والمغالاة أدى ذلك إلى إنكار الغيبيات والإقتراب من المادية البحتة والكفر بالاله يقول فولتير (١٧٨٨م) فى هذا المعنى [إذا رأيت اثنين يتناقشان فى موضوع ولا يفهم أحدهما الآخر ، فاعلم أنهما يتناقشان فى الميتافيزيقا ...] : إلى آخر هذه الموجة من السخرية[1] .

نعم لقد كانت الكنيسة فى العصور الوسطى وبداية العصر الحديث تسلك سياسة تناقض الأخلاق كما تناقض العقل تناقض الأخلاق بما آل إليه أمرها من إستغلال العباد والسيطرة على رقابهم ونهب أموالهم بشتى الطرق رافعة شعارات سماوية تتناقض مع العقل كمسألة الغفران ومسألة استحاله الخبز والخمر إلى جسم المسيح ودمه من جهة ومعاداتها لكل جديد يتوصل إليه الفكر الإنسانى وإن يكن فى ميدان الطبيعة كحقيقه دوران الأرض وكرويتها من جهة أخرى .

إن هذه السياسة قد جعلت الكثير من أهل الفكر ينقمون على الكنيسة ويكفرون بها بل إن كفرهم بها تعدى إلى الكفر بما تدعو إليه من مسائل الغيب باعتبار أن من فقدت الثقة به فى شىء فقدت الثقة به فى كل شىء فاعتبر لذلك هذا الدين الذى تدعو إليه الكنيسة إنما هو من باب الترهات والزيف[2] .

بالإضافة إلى ذلك ظهور المكتشفات الهائلة نتيجة النهضة العلمية وما نتج عنها من الثورة الصناعة الأمر الذى ترتب عليه الكفر بالأديان عامة والثقة الكاملة فى كل انجازات العلم بحجة أن الحق والخير إنما يأتى عن

---

(١) د/ بلقاسم الغالى مجلة المسلم المعاصر ص ٧٦

(٢) د/ مصطفى حلمى ص ٢٠٣ دراسات فى الفكر الاسلامى

طريق القوانين العلمية وإذن فكل ما سوى العلم إنما هو وهم لا حق فيه ولا خير .

ومن ذلك الدين الذى لم يقدم للإنسانية ما قدمه العلم فى فترة قصيرة اختمرت هـــذه المعانى فى العقول وتظافرت فيها النقمة على الكنيسة وما تدعو إليه مع الانبهار بالعلم ونتائجه لتبرز فى شكل فلسفى . خلاصته أن المادة هى الحقيقة الكبرى فى الكون وكل ما وراءه من الغيب إنما هو زيف وكل ما يقع فى الطبيعة وكل ما يقع فى المجتمع وكل ما يقع فى النفس إنما هو راجع إلى سبب مادى وكل ما يقوله رجال الدين عن القوى الغيبية إنما هو [شيك لا رصيد له فى المصرف].

هذه التوترات أدت إلى تكوين مذاهب هدامة ما لبثت أن تسربت إلى العالم الإسلامى فى أشكال شتى وأساليب مختلفة كالدعوة إلى الفصل بين الدين والدولة ونكران الغيب والمذاهب الوضعية والوجودية والشيوعية وكل المذاهب التى تنتظم فى سلك واحد هو الفلسفة المادية التى أنكرت كل ما ليس بمادة ويأتى فى مقدمة المذاهب[1] .

المذهب الوضعى

مؤسس هذا المذهب [أوجيست كونت] سنة ١٨٥٧م ، أنكر كل تفكير قبلى وأستبعد البحث فى الغايات القصوى والعلل الأولى ولم يعترف بغير الواقع المحسوس يعالجه بمناهج البحث التجريبى] : ويذكر (كونت) أن البشرية مرت بثلاث مراحل .

---

(١) مجلة المسلم المعاصر ص ٧٧ مقال د/ بلقاسم الغالى

١ — الالهية :

٢ — الفلسفية التجريدية .

٣ — العلمية الوضعية .

فى المرحلة الأولى : كانت تنسب الحوادث مباشرة إلى قوى خارجية وراء الطبيعة ، قوى الله أو الإلهية التى اصطنعها الإنسان وأعتقد بها فالزلزال والبركان والفيضان والعاصفة وهكذا الخسوف والكسوف والأمراض والأوبئة هى مباشرة من فعل قوى خارج حدود الطبيعة . كان هذا التفكير مسيطراً على الإنسان .

أما فى المرحلة الثانية : فقد بدأ الإنسان يفلسف قضاياه ومناهجه وفى هذا المجال فقد انتزع مفهوم العلية من الترابط والتعاقب الملحوظ بين حوادث الطبيعة وحينئذ فبدل أن يؤمن الانسان بسذاجة بقوى غيبية وراء الأشياء بدأ يدرك أن حوادث الطبيعة مربوطة بعضها ببعض وخاضعة لمبدأ العلية ولا بد من علة لكل ما يحدث فى هذا الكون .

وطبعاً إن مبدأ العلية هذا إستخدم للوصول إلى الله بوصفه العلة الأولى فى الوقت الذى لم يستخدمه آخرون ولم يصلوا منه إلى علة أولى .

أما المرحلة الثالثة : فقد ألغى الإنسان تفكيره الفلسفى القديم حول مبدأ العلية لحوادث الطبيعة مترابطة فيما بينها لا على أساس العلية وإنما على أساس قانون الطبيعة نفسه ومهما حاولت أن تفحص الحدث الأول والثانى المترابطين فإنك لا تجد عليه ومعلولية ، كل ما تجد هو تعاقب وترابط ومعنى ذلك أن القانون الطبيعى يقضى بترابط الأشياء د مع م

---

(١) د/بلقاسم الغالى مجلة المسلم المعاصر العدد ٩٢ ص ٨٧

وليس شيء آخر وعلى هذا فى المرحلة الثالثة للبشرية تصبح قضية الإيمان بالله غير ذات معنى طالما أثبت العلم أنه لا توجد عليه ولا مايسمى بمبدأ العلية فانهار بذلك الأساس الفلسفى لقضية الإيمان[1] .

ولعل الكلام أن يناقش أوجست كونت يبطل دعواه بناء على الواقع فنقول وبالله التوفيق .

إننا نعتقد بصحة التقسيم الذى ذهب إليه كونت من الناحية التاريخية إلا أن لنا ملاحظات .

أولا : إن قضية الإيمان ليست مرتبطة بشكل كامل بـ [مبدأ العلية] حتى إذا سقط مبدأ العلية سقطت قضية الإيمان .

وهناك مجموعة أدلة أخرى تؤكد قضية الإيمان وهى غير مرتبطة بمبدأ العلية فإذا استطاعت البراهين العلمية فرضا أن تثبت وهمية هذا المبدأ وعدم صحته فإنها لا تثبت بذلك وهمية وجود الله .

ثانياً : إن البشرية فى مراحلها الثلاث عاشت مبدأ العلية فى المرحلة الأولى كان مبدأ العلية هو الحكم فى عقل الانسان والموجه لطريقة تفكيره إلا أنه لم يكن على شكل مفهوم فلسفى وإنما على شكل إحساس وجدانى بحاجة كل حادث إلى علة ومن هذا الاحساس الوجدانى والشعور الباطنى إنطلق الانسان لينسب كل الحوادث إلى قوى وراء الطبيعة .

ففى المرحلة الأولى إذن كان مبدأ العلية موجوداً ومعترفاً به إلا أنه لم يكن على شكل مبدأ مفهوم . وإنما على شكل إحساس وتعايش على

---

(١) أنظر د/يوسف كرم تاريخ الفلسفة الحديثة ص ٣١٩

واحتوائه والإيمان به باطنيا وفى المرحلة الثانية كان هذا المبدأ موجوداً على حد اعتراف (كونت) نفسه .

أما فى المرحلة الثالثة فإنه لم يسقط وإنما سقط عند فئة من الفلاسفة وعلى ذلك فنحن إذا كنا نقبل مع كونت أن البشرية شهدت مرحلة ثالثة هى مرحلة الوضعية المنطقية فإنما نقصد أن البشرية فى هذه المرحلة شهدت اتجاهاً فلسفياً ينكر مبدأ العلية ويفسر كل التعاقبات بين الحوادث الكونية على أساس أنها قانون الطبيعة . وإذن فدخول البشرية فى هـــذه المرحلة لا يعنى أكثر من دخول بعض الناس فى هذه الطريقة فى التفكير وذلك أمر لا يرتبط بالتطور العلمى ولا هو وليدة[1] .

المذهب الوضعى يرفض البحث فى الغيب وأبى أن يقر حقائقه أو يرفضها وتتركز جهود أتباع كونت على النزعة العلمية التجريبية وانصرفوا عن البحث فى كنه الموجودات وحقيقتها إلى دراسة الظواهر نفسها فأسسوا العلوم التجريبية على مقتضى هذا الاتجاه فتركزت كتابات دينال فى تاريخ الأديان سنة ١٨٩٢م) ودور كايم سنة ١٩١٧م)ٍ فى علم الاجتماع وليفى بدول سنة ١٩٣٩م) فى علم الاخلاق .

وابتدع كل واحد من هؤلاء وغيرهم تفسيراً للدين .

فرأى دور كايم الفيلسوف الفرنسى فى الدين أنه مؤسسة اجتماعية اختلقها المجتمع وابتدع لها نواميس وسنناً .

ورأى علماء النفس أن الدين نتاج اللاشعور الإنسانى وليس انكشافاً لواقع خارجى .

---

(١) انظر الله فى التصور الإسلامى صدر الدين القنبجى ص ٦٨

وترى الشيوعية أن العوامل الاقتصادية هى التى خلقت الدين والدين أفيون الشعوب وهو خدعة تاريخية ابتكرتها البرجوازية للاستيلاء على جهد الطبقات الكادحة للاستيلاء على جهد الطبقات الكادحة وثرواتها يقول لينين الذى اعتنق هذا المذهب وحوله إلى واقع اجتماعى (إننا لا نؤمن بالإله ونحن نعرف كل المعرفة أن أرباب الكنيسة والاقطاعيين والبرجوازيين لا يخاطبوننا باسم الإله إلا استغلالا ومحافظة على مصالحهم اننا ننكر بشدة جميع هذه الأسس الأخلاقية التى صدرت عن طاقات وراء الطبيعه غير الانسان[1] .

والوجودية تزعم أن الإنسان هـــو الذى خلق الله ولم يخلق الله الانسان وفسرت نظرية تطور الخلق بشكل بدا للكثيرين أنه مخالف لما جاء به الدين .

هذه الافكار قد غزت البيئه الإسلامية فى الوسط الثقافى وتحدت عقيدة المسلمين على الرغم من أنها فلسفات لم تصل إلى مستوى الحقائق العلمية ولم تبلغ مستوى المقولات الفلسفية . فقانون الأطوار الثلاثه عند كونت) أقرب إلى التفكير الفاسق الميتافيزيقى منه إلى باب العلم الوضعى هذا إلى جانب خطئه الذى يشهد به استقراء التاريخ فالتجربه نشهد بأن الأدوار الثلاثة قد توجد فى الفرد الواحد والجماعة الواحدة مقترنة بعضها ببعض فقد يقبل الفرد أو الجماعة تفسيرات لا هويته أو ميتافيزيقية فى بعض المشاكل التى تواجهه مع اعتقاده بالعلم الوضعى الواقعى ونتائجه .

والملاحظ أن الدور الأول الذى يقولون إنه يتمثل فى عصر ما قبل التاريخ وبدء التاريخ قد اخترعت فيه صناعات عن طريق المشاهدة ومعرفة طبائع الأشياء .

---

(١) نقلا عن وحيد الدين خان الإسلام يتحدى ص ٣٠

وفى الدور الفلسفى الذى يقال أنه شمل العصور القديمة قد وجدت فيه مشاهدات فلكية ومدنيات شرقية وعرفت هندسة إقليدس وطب أبقراط وطبيعيات أرسطو وكيمياء المسلمين وطبهم .

وفى الدور الوضعى الذى يقال أنه يتجلى فى العصور الحديثة وجد كثير من دعاة الاخلاق والدين والتأمل وإذن فليس فى تاريخ العقل البشرى ما يثبت أن مرحلة التفكير الفلسفى تسبق مرحلة التفكير العلمى[١] .

أساليب التحدى

يمتاز كل عصر بأساليبه وطرقه ومناهجه التى يروج بها فلسفاته ويعمل على نشرها وإذاعتها بين الناس ومنذ الهجمات التى وقعت على المنطق من قبل ديكارت فلم يعد المنطق فى الفكر الحديث طريقا مقنعا للاستدلال فقد أصبح كل شىء موضع شك وبذلك سقطت القضايا القديمة القائمة على المسلمات المنطقية وأصبح فى العقل الحديث لا شىء يسلم منطقيا إلا وله نقيض منطقى يمكن أن يحتمله العقل[٢] .

وقد برز إلى الوجود استدلال أخر حل محل الاستدلال المنطقى هو الاستدلال العلمى الذى يرفض كل مقدمة لم يثبتها العلم ، ويستمد مادته من منتجات العلم وهذا الاستدلال له ناحيتان :

— الناحية الفكرية والناحية التجريبية .

---

(١) انظر ص ٧٨ مجلة المسلم المعاصر ومقال د/ القاسم الغالى

(٢) د/ عبد الصبور شاهين — مقدمه كتاب الإسلام يتحدى وحيد الدين خان ص ١١

١ — الناحية الفكرية :

هى الطريقة التى سلكها أشخاص لم يكونوا من العلماء ولكنهم لا يؤمنون إلا بالعلم ، فاستندوا على نتائجه وصاغوا على أساسها نوعا من القضايا تعرض بأسلوب فلسفى من مثل قضايا حتمية المادة ووجود المادة العقلية والمادة الواقعية والعلاقة بين المادة والحركة وحتمية التطور والاحتمالات الرياضية ، ودور الصدفه فى نشأة الكون ويقوم الاستدلال على معارضة العقيدة فى هذا الجانب على ثلاثة أسس هى :

الطبيعة والنفس والتاريخ .

أما الطبيعة فباعتبار ما وقع التوصل إليه من القوانين والسنن الدقيقة التى يسير بمقتضاها الكون فاكتشاف هذه القوانين دفع إلى أن تقام بها الأدلة على نكران موجود وراء المادة يسير الكون باعتبار أن هذه السنن هى السر الحقيقى للظواهر والأشياء الحادثة منها ، (فإذا كانت الحوادث تصدر عن قوانين طبيعية فلا ينبغى أن ننسبها إلى أسباب فوق الطبيعة)[1] .

وأما النفس فباعتبار ما وقع التوصل إليه من اكتشاف اللاشعور فى الانسان فقد صار هذا اللاشعور هو مصدر كل الأفكار الدينية التى لا تكشف واقعاً خارجيا فالإله ليس سوى انعكاس الشخصية الانسانية على شاشة الكون والآخرة ما هى إلا صورة مثاليه للامانى الإنسانية والوحى ما هو إلا اظهار لأساطير الأطفال المكبوتة[2] .

وأما التاريخ معنى أساس توصلت إليه الدراسات الإنسانية فى شتى

---

(١) نقلا عن وحيد الدين خان والإسلام يتحدى ص ١٢
(٢) نقلا عن وحيد الدين خان — الإسلام يتحدث ص ٢٨

الميادين الاجتماعية والثقافية والاقتصادية فقد نتج عن هذه الدراسات أن جميع التصورات التي عرفها الإنسان المتعلقة بالتصورات الدينية ماهي إلا انعكاس لضعف الإنسان وخوفه أمام قوى الطبيعة ومن الممكن أن تكون حيل ابتكرها الأقوياء ليستغلوا بها الضعفاء وعلى هذا الأساس قامت المادية التاريخية والفلسفات الشيوعية .

٢ — الناحية التجريبية :

في بداية النهضة الحديثة حينما بدأت التجربة تبهر عقل الإنسان وتثبت له جدرانها كوسيلة للتحقق من صحة معلوماته ومعارفه قفز لدى الإنسان مؤثر النزوع المادي وأصيب في ذات الوقت بالغرور العلمي . لقد كشفت له التجربة زيف كثير من معلوماته السابقة وأثبتت له خطأه يوم كان غارقا في التأمل العقلي لمعرفة أسرار الطبيعة وطبائع الأحياء وكل شيء بعيداً عن التجربة والتطبيق والملاحظة الخارجية حينئذ أصيب الإنسان بردة فعل عنيفة صاحبها غرور علمي قاتل كما صاحبها توتر في النزوع المادي لماذا يعتمد على العقل والعقليات إذن ؟ وها هي التجربة تعطيه بالأرقام اشتباهاته حينما مارس ذلك الأسلوب .

ولماذا يضطر إلى حلول عقلية وفلسفية وها هو العلم يكشف له كل شيء ؟ وما هو المبرر لأن يؤمن بمقولات وراء الطبيعة طالما فقد الثقة بصحتها والتجربة العزيزة لا تدعمها ؟[1]

فهؤلاء اقتنعوا بطريقة التجريب حتى ظنوا أنها هي الطريقة الوحيدة لمعرفة الحقيقة (فكل معرفة حقة مرتبطة بالتجارب بحيث يمكن فحصها وإثباتها بصورة مباشرة أو غير مباشرة) .

---

(١) الله في التصور الإسلامي ص ٩٧ صدر الدين القبنجي .

وعلى هذا الأساس فإن كل ما لا يخضع للتجربة فهو باطل وبالتالى فإن الدين باطل . هكذا يرى الملحدون المغفلون أن الإيمان بماوراء الطبيعة أصبح قضية لا يمكن التفكير فيها لماذا ؟ ليس هناك دليل (تجربة) واقعية .

ولا استحالة عقليـــة ولا امتناع علمى وإنما النزعة المادية المتطرفة والتعصب فيما يقطع على الإنسان طريق ذلك ، والواقع أن المضى فى طريق العلم يكشف للإنسان رغم كل ما وصل إليه أنه ما يزال مراهقا لكن الغرور العلمى والتعصب المادى الذى أصيب به إنسان النهضة الحديثة كان أحد دوافع الإلحاد .

إن الدين ليس ماديًا بل هو فوق المادة وبناء على هذا فلا سبيل إلى إنكاره باستعمال أقيسة العلوم المادية وبذلك تسقط أدلة منكرى الدين على هذا الأساس باعتبار أنها طبقت مقياسا مستحدثا لأجل مادة معينة على مادة أخرى مخالفة لها فى الطبيعة مخالفة مطلقة وتستطيع أن تقرر أن هؤلاء الماديين قد أخطأوا فى اعتمادهم على الحس وعلى التجربة فإذا كان الحس أو التجربة وسيلة صحيحة من وسائل المعرفة : وليست هى الوسيلة الوحيدة فهناك وسائل أخرى كالعقل والقلب أو البصيرة أو الحدس لأن الوجود له ظاهر وباطن فالحس أو التجربة وكذلك العقل وسيلتنا إلى معرفة الوجود الظاهر وأما البصيرة أو الحدس فوسيلتنا إلى معـــرفة الباطن أوعالم الغيب وإذن فمن التحكم أن يعتمد الماديون على وسيلة واحدة ثم يجعلونها المقياس لكل الحقائق .

والعلم الذى اعتمدوا على منهجه اصبح يؤمن اليوم بأن فى الوجود قوى لا ينالها الحس المجرد ولا الحس المجهز بأقوى المجاهر وأصبح يؤمن بأن

---

(١) وحيد الدين خان الإسلام يتحدى ص ٢٦ .

التجربة الحسية ليست هي المعيار الوحيد للحقائق ذلك أن بعض الملاحظات تحمل العلماء على الإيمان بوجود بعض حقائق غير مشاهدة قطعيا ، ولذا فإن العلم لم يعد يدعى أن الحقيقة محصورة فيما علمناه من التجربة المباشرة فقانون الجاذبية وهو قانون على صحيح لا يمكن ملاحظته قطعاً وماشاهده العلماء من دوران القمر فى الفلك وصعوبة رفع الحجر إلى أعلى وسهولة النزول من الجبل عن الصعود فوقه لا يمثل فى ذاته قانون الجاذبية وإنما هى أشياء أخرى اضطروا لأجلها أن يؤمنوا بوجود هذا القانون حتى القانون حتى يستطيعوا أن يفسروا به هذه المشاهدات وهذا القانون مع أنه لم يشاهد — حقيقة علمية — لأنه يفسر بعض الملاحظات فليس بلازم إذن أن تكون الحقيقة هى ما علمناه مباشرة بالتجربة ومن ثم نمضى إلى القول بأن الحقيقة الغيبية التى تربط وتفسر ما نلاحظه تعتبر حقيقة علمية من نفس الدرجة[1] .

وإذا كان الماديون من العلماء يؤمنون ببعض الحقائق الغيبية التى لا يمكن ملاحظتها فلماذا ينكرون الحقيقة الإلهيـــة بدعوى أنها حقيقة غيبية ؟

إن القدامى من المتكلمين قد عقدوا المناظرات لابطال شبه الخصوم ونجحوا فى بعث دعاتهم إلى كل البلاد لتلقين عقائدهم وألفوا الكتب التى تشرح عقائدهم وقد مهر القدامى فى ذلك .

أما فى عصرنا فإن العالم يشهد تطوراً فى شتى المجالات وأصبح العالم بفضل التقدم التكنولوجى يشهد ثورة فى عالم الاتصال حتى أصبح كأنه قرية صغيرة لذا تزداد شراسة الغزو الفكرى على العالم الإسلامى بهدف اخضاعه وتحطيم معتقداته وتمييع سلوكياته .

---

(١) وحيد الدين خان الإسلام يتحدى ص ٤٣

دور علم الكلام فى وقتنا الحاضر لمواجهة التحديات

إن واقع العالم الإسلامى فى عصرنا الراهن يؤكد الحاجة الملحة إلى وجود علم الكلام كى يقوم بالدفاع عن الإسلام ودرء الخطر عن عقائده ودحض شبهات الخصوم الذين ظهروا من جديد مستهدفين القضاء على الإسلام عن طريق تشكيك المسلمين فى عقائدهم . قد يقول قائل وأين هم الأعداء الآن ونحن نعيش فى عصر الوفاق الدولى ؟

نجيب على الفور إن الإسلام يواجه فى العصر الحديث بعدوين خطيرين المستشرقون المتعصبون الحاقدون على الإسلام الذين يخططون ويضعون البرامج والمبشرون ينفذونها فى البلاد الإسلامية ، بخطة محكمة حيث أثاروا شبهات كثيرة فى وجه الإسلام وشككوا فى كثير من عقائده حتى أذاعوا أن الإسلام هو السبب فى تأخر المسلمين لأنه بعقيدة القدر قد أشاع التكاسل والتواكل وجعل كثيراً من أهله يقعدون عن عن العمل معتقدين أن الله قد قدر كل شىء فى الأزل وإن قضاء الله نافذ لامرد ، له وقد أدى ذلك إلى تأخر المسلمين وتخلفهم . عن ركب الحياة كذلك زعموا أن الإسلام ضد العلم وضد حرية الفكر .

أما العدو الآخر فهم الماديون الذين يزعمون أنه لاوجود إلا للمادة وإن ماعداها فهو وهم وخداع وقد أدى هذا إلى شيوع الإلحاد وإعلان الحرب على الأديان لأن الدين فى زعمهم وهم وخرافة .

هذه الظروف تستوجب وجود علم الكلام لكى ينهض بالمهمة التى كان ينهض بها فى الماضى ، بل إن المهمة التى ينبغى أن يقوم بها فى الوقت الحاضر مهمة شاقة لأن خصوم الاسلام قويت شوكتهم اليوم بعد أن وجدوا فى نظريات العلم ماقد يبرر وجهة نظرهم ومايقوى موقفهم المعادى

للأديان وخاصة الإسلام وبعد أن سبقوا المسلمين فى شئون الحياة المادية وقد لفت بعض المستشرقين المسلمين إلى حاجتهم إلى علم الكلام فى العصر الراهن فقد كتب [هنرى لاووست] فى كتابه عن الفرق الإسلامية وقال (إن الإسلام فى حاجة إلى علماء توحيد ومؤرخين بقدر هو ما بحاجة إلى الفنيين والمهندسين . إذا كان يريد أن يظل إحدى القوى الروحية فى المستقبل)[1] .

وإذا كانت الحاجة ملحة إلى علم الكلام فما هى رسالته والدور الذى ينبغى أن يقوم به هذا العلم الواقع أن الدور الذى يمكن أن يقوم به علم الكلام الآن كما عرض ذلك الدكتور / عبد المقصود عبد الغنى يتلخص فيما يأتى :

١ — عرض حقائق الإسلام بأسلوب عصرى يتقسم بالبساطة والوضوح بحيث يلائم مدارك الخاصة والعامة على حد سواء والاستدلال على صحة هذه العقائد بأدلة تخاطب العقل والقلب وتنأى عن التكلف والتعقيد .

٢ — وضع كتب تبين زيف المفاهيم الخاطئة التى نسبت إلى الإسلام زوراً والتى كانت سبباً لسلبية المسلمين وتأخرهم عن ركب الحياة حتى يصبح الإسلام مصدر توجيه للمسلم فى حياته ودافعا إلى العمل فعقيدة القدر مثلا قد شابها إنحراف جعلها تعنى الجبر والاكراه وكان لابد من تصحيح هـذا الإنحراف وتوضيح حقيقتها ومفهومها فى منطق الإسلام مما يكشف عن أثرها فى حياة المسلمين ويدفعهم إلى العدل والبحث

---

(١) أنظر مقال الدكتور عبد الرحمن بدوى نقلا عن د/عبد المقصود عبد الغنى أصول العقيدة الإسلامية ص ٤٢

حتى يسيطروا على الطبيعة كما سيطر الغرب عليها وكذلك عقيدة التوحيد قد لحق بها كثير من البدع والخرافات بتأثير التصوف المنحرف وما يقول به من الفناء والحلول ووحدة الوجود وما إلى ذلك مما أدى إلى شيوع الرهبانية والتواكل وهذا يفرض على علم الكلام مسؤلية تصحيح هذه العقيدة وتخليصها من البدع والخرافات التى حجبت صفاءها ونقاها وتوضيح ما تتضمنه من إخلاص العبادة لله وحده والإيمان بأنه لا معبود بحق إلا الله ولا خالق ولا رازق إلا الله ولا نافع ولا ضرار إلا الله ولا مشرع إلا الله ويترتب على ذلك الالتزام بمنهج الله وشريعته وشعور المؤمن بعزته وكرامته[1] .

٣ — الرد على الشبهات التى يوجهها المستشرقون إلى عقائد الإسلام ومبادئه وتشريعاته وإلى القرآن الكريم وشخصية الرسول ﷺ وهم يهدفون إلى قطع صلة المسلمين بربهم وجرهم إلى الارتماء فى وثنيه الغرب فقد زعمهم البعض أن الإسلام لا يسمح بحرية الفكر وانطلاقه وزعم البعض أنه دين لا يساير التقدم والمدنية .

وزعم البعض أنه قد قام على السيف وزعم البعض أن مبادئه فى الزواج والطلاق فيها إهانه لكرامة المرأة وتشتيت للأسرة وزعم البعض أن عقوباته التى فرضها على جرائم السرقة والزنا وشرب الخمر والقضاء فيها وحشية وقسوة وزعم البعض أن النبى ﷺ كان مفرطا فى الشهوة بل إنهم اتهموه بتهم لاتليق بمكانته وتقدير الله له وقد شنع البعض على صحابة الرسول وإزاء هذه المزاعم الكاذبة والمفتريات الباطلة ينبغى أن يحشد علم الكلام كافة إمكانياته لمواجهة هذه الحملات المسعورة التى تصدر عن الحقد والكيد للإسلام[2] .

---

(١) أصول العقيدة د/عبد المقصود عبد الغنى ص ٤٢

(٢) المرجع السابق ص ٤٣

٤ - تخليص الفكر الإسلامى من القيود التى عاقت مسيرته وتطوره وتحرير العقول من سيطرة الخرافات ومن الجمود الذى سيطر عليها وذلك بالدعوة إلى فتح باب الاجتهاد وممارسته فعلا ومحاربه التقليد الأعمى للقدامى فى كل ما قالوا ، دون أعمال الفكر والنظر .

٥ - مواجهة التيار الإلحادى الذى زحف من الغرب على الشرق وجعل كثيراً من شباب المسلمين الذين بهرتهم الحضارة الغربية يستهينون بدينهم وتراثهم ويدعون إلى تقليد الغرب تقليداً أعمى والأخذ بمذاهبه فى التفكير وقد زعم دعاة الفكر المادى أنه ليس فى الوجود إلا المادة وأعلنوا أن المادة أزلية قديمة وإنها تتطور تطوراً ذاتياً تلقائياً دون حاجة إلى إله ومن ثم فإنهم أنكروا الدين بدعوى أنه لا يقع فى إطار التجربه التى يعتبرونها المصدر الوحيد لمعرفة الحقائق فكل مالا يخضع للتجربه أو تدركه الحواس - كالملائكة وإلا له والبعث - ليس حقيقة بل هو كذب وخداع فى زعمهم وعلى هذا فانهم رفضوا الأديان وأعلنوا الحرب عليها وزعموا أنها خدعة مخترعة وإذا كان لهذا التيار مخاطره على العقائد الدينية وخاصة عقائد الإسلام فلابد وأن يتصدى له علم الكلام ويكشف عما فيه من أخطاء علمية ويبين ما يقوم عليه من أساس متهافت وحجج واهية[1] .

٦ - إبراز أهمية الجانب الروحى فى هذا العصر الذى تتسلطت عليه النزعة العقلية الطاغية وسيطرت الماديه عليه التى سلبت الإنسان إيمانه فى مصيره هو وجعلته غير قادر على كبح أثرته الجارفة[1] .

---

(١) المرجع السابق ص ٤٣

(٢) محمدا فقال تحديد الفكر الدينى فى الإسلام ص ٢١٥ نقلا عن د/عبد المقصود عبد الغنى ص ٤٤

كما جعلته عبداً للمال يضحى فى سبيله بكل القيم وقد أدى ذلك إلى قلقه المستمر واضطرابه وصراعه مع نفسه ومع غيره ويأسه من الحياة التى لا يجد فيها عزاء لما قد ينزل به من آلام أو محن .

أجل أن إنسان اليوم فى حاجة ماسة إلى التنوير الروحى ولن يتأتى ذلك إلا إذا أزيلت من نفسه رواسب الجاهلية وخلى بينه وبين الفطرة النقية الطاهرة .

وعلم الكلام هو الكفيل بهذه المهمة متى استخدم فى ذلك الأساليب المناسبة التى تلائم إنسان هذا العصر وتلك مسئولية ينبغى أن تتضافر فى مواجهتها كل القلوب المخلصة سواء فى ذلك الأفراد أو المؤسسات التى تضطلع بالدعوة إلى الله[1] .

ولكى يستطيع علم الكلام أن يقوم بهذا الدور الذى ينبغى أن يقوم به لا بد أن يجدد منهجه وأن يتخذ أسساً تلائم ظروف العصر وطبيعة المرحلة ولعل الأسلوب الملائم الذى يتماشى مع علم الكلام اليوم هو الأسلوب العلمى وذلك لأنه أنجع الأساليب لاقناع العقلية المعاصرة لما عليه هذه العقلية من الاعتداد بالعلم التجريبى ونتائجه ويقوم هــذا الأسلوب على أساس الاعتماد على نتائج العلم التى توصل إليها بالتجارب وإستخدامها كمقدمات لأن تبنى عليها أدلة تبرهن بها على حقائق الدين ومن ذلك مثلا إستخدام النتائج التى توصل إليها علم الفلك من القوانين للتدليل على أن ذلك من تدبير خالق واستخدام القوانين الرياضية لابعاد إحتمالات الصدفة فى خلق الكون واستخدام قوانين الفيزياء فى الطاقة والحرارة للبرهنة على أن الكون حادث ولا يقلل من شأن هـذا الطريق فى الاستدلال ما قد يكون من نسبية القوانين والنتائج العلميه وأن ما يعتقد يوما أنه حقيقة

---

(١) أ. د محمد عبد الستار نصار العقيدة الإسلامية ص ٣٠ وتأويلها لدى مفكرى الإسلام

علمية قد يكشف يوما آخر عن أنه ليس حقيقة وذلك لأن حقائق العلم منها ما هو قطعى لا يمكن أن يتغير أو تخالفه كشوفات وتجارب الغد مثل دوران الأرض أو تركب الماء من الاكسوجين والهدرجين بنسبة واحد إلى ٢ وحتى إذا ما استعملت فى الاستدلال نتائج علمية نسبية فإنه لاضرر لأن بطلان الدليل لا يؤذن ببطلان المدلول بل تلتمس أدلة أخرى لاثباته .

ومن الأمور التى يمكن أن تعتبر أسسا لعلم الكلام الجديد ما يأتى:

١ — يجب على علم الكلام أن يتجاوز جميع السلبيات التى وقع فيها علم الكلام القديم فينبغى أن يتخلى عن استخدام المنهج الجدلى العقيم الذى يعتمد على مقدمات ظنية وكثيرا ما يؤدى إلى إثارة الشبه والشكوك دون أن يفضى إلى الاقناع واليقين وينبغى أيضا ألا ينشغل عن مواجهة الخصوم الخارجين بالخصومات الداخلية التى أدت فى القديم إلى تصدع جبهة المسلمين وضعف شوكتهم وأتاحت الفرصة لاعداء الإسلام أن يمارسوا نشاطهم الهدام .

٢ — أن يواجه التيار الالحادى الذى زحف من الغرب على الشرق وجعل المادة هى كل شىء .

٣ — إلا يخوض فى الأمور التى لا يستطيع العقل أن يصل فيها إلى رأى قاطع كالبحث مثلا فى مسألة الصفات بالذات وهل هى عين الذات أو غيرها وذلك لأن البحث فى هذه الأمور يجعل العقول تتخبط وتختلف بما قد يؤدى إلى الشقاق والصراع الحزبى البغيض ومن ثم ينبغى أن تعتصم فى هذه الأمور بالوحى ويقف عندما وقف عنده ، ولو وقف المتكلمون القدامى فى صفات الله مثلا عندما وقف عنده الوحى لما كفر المعتزلة الاشاعرة ولا كفر الاشاعرة المعتزلة .

واعتقد أن علم الكلام — بهذا — يلائم ظروف العصر وطبيعة المرحلة

التى نعيشها بما فيها من صراع جاد بين الاسلام وخصومه أنه سوف يجابه تحديات العصر وقضايا الساعة وسيواجه التيارات الالحادية والاتجاهات الفكرية المنحرفة والمذاهب الفلسفية المادية وهو بذلك كله سيكون عصريا فى قضاياه وموضوعاته وفى أسلحته وطرق دفاعه وفى حواره ووسائل اقناعه . بها كله يكون علم الكلام فيما أرى مصدر خير للإسلام وسلاحا جادا ضد خصومه وحارساً لحمى العقيدة .

الخــاتمة

وبعـــد :

فان علم الكلام يواجه بثلاثة تحديات خطيرة :

الأول : التحدى المنبعث من واقع المسلمين السيء ممثلا فى الجمود والجبرية وما يتصل بالبدع والخرفات .

الثانى : التحدى المنبعث من الغزو الفكرى والتغريب والشعوبية .

الثالث : التحدى المنبعث من الهزيمة النفسية إزاء إباحيات الحضارة وان يؤمن بأن هدف التغريب — المتمثل فى فرض مفاهيم وافدة تتعارض مع الاسلام هو هزيمة العقل الاسلامى باذاعة الالحاد وتقويض المجتمع والاسرة بنشر الاباحية وتكوين مركب نقص فى أعماقه النفس المسلمة يشعرها بالهزيمة أمام الحضارة المادية فنستنقص أنفسنا كأمه حملت أمانة التوحيد أربعة عشر قرنا وقدمته للعالمين من حدود الصين إلى نهر الوادى هذة العقيدة التى تتميز على سائر العقيدة التى تتميز على سائر العقائد بأنها ربانية وإن كتابها لا يزال النص المنزل الذى لم يصبه أى تحريف .

إن مهمة علم الكلام شاقة وتحتاج إلى تضافرا لهمم لمواجهة هذه التيارات نعم لسائل أن يسأل عن أهمية دراسة علم الكلام فى عصرنا وهل لايزال له دور من حيث أنه علم يهدف إلى بيان العقيدة وإثباتها والدفاع عنها بالأدلة صد شبهات الخصوم والمخالفين ؟ وهل يقف دوره على على الزمن الذى كانت فيه فرق متعددة وقيامة بالرود عليها أم يتعداه إلى زماننا الحاضر والمستقبل وهل كان ابن خلدون (المتوفى عام ٨٠٨ ق) على حق حين بالغ فى تفاؤله ؟ حين ذكر أنه لم تعد الحاجة إلى علم الكلام [إذ الملحدة والمتبدعة قد انقرضوا والأئمة من أهل السنة كفونا شأنهم

فيما كتبوا ودونوا والأدلة العقلية إنما احتاجوا إليها حين دافعوا ونصروا)[١] وإذا كان هناك ضرورة لدراسة علم الكلام فى عصرنا فعلى أى نحو يجب أن تكون عليه الدراسة ويمكننا أن نجيب عن ذلك بأن الفكر الإنسانى عموما سلسلة متصلة الحلقات يتصل فيها الماضى بالحاضر بالمستقبل وتقوى هذه الصلة إذا كان موضوع ذلك الفكر متصل بأمور العقيده وعلم الكلام من حيث موضوعه يتناول أمور العقيدة ويمثل تراثاً فكرياً أدبياً ويبرز ماقام به سلفنا من تدليل على العقيدة والرد على الزنادقة وغيرهم فلاغنى عن دراسة ذلك الجانب التاريخى لنشأة علم الكلام . لكن يجب ألا تقف عند الجانب التاريخى بل تتجاوزه لأن الهدف من هذه الدراسة فى عصرنا ليس أن نثير ونبعث تلك المشكلات الكلامية الجافة من مرقدها بل يجب أن نتناولها بنظرة نقدية وهذه النظرة النقدية تعيننا على وضع قواعد عامة وأسس لإقامة علم كلام جديد يلبى حاجات العصر ويتفق مع معطياته .

وإذا نظرنا إلى موضوع علم الكلام فإنه يتناول قضايا العقيدة وهذه القضايا ليست آنية وزمانية فحسب بل هى قضايا عامة لا تخص زمان بعينه فهى تقوم على العلاقة بين الله والإنسان ولا بد من تصور بشرى لهذه العلاقة بين الإله الخالق والإنسان المخلوق .

وإذا كان علماء الكلام قدموا تصوراتهم وفهمهم لهذه العلاقة فهذه التصورات كانت قائمة على العلم السائد فى عصرهم ولاشك أن دائرة العلم قد توسعت والتطور العلمى قد حدث فى عصرنا الحالى واتسعت نتيجة لذلك معرفة الإنسان بنفسه وبالعلم الطبيعى وبذا انتغير مفاهيمنا وتصوراتنا لتلك العلاقة تبعاً لتطور العلم ومعطياته[٢] .

---

(١) ابن خلدون المقدمة ص ٤٣١ .

(٢) د/ على عبد الفتاح المغربى الفرق الكلامية الإسلامية ص ١١٥ — ١١٦ .

ونريد ذلك الأمر وضوحا فنقول : أنه يجب أن يتغير منهجنا فى تناول الموضوعات عن منهج المتكلمين فعلى سبيل المثال : إذا كنا بإزاء الاستدلال على وجود الله بأدلة عقلية فإن طبيعة تلك الأدلة تختلف عما كانت عليه لدى المتكلمين لأن المتكلمين قد بنوا أدلتهم على نمط الاستدلال الفلسفى المنطقى والأقيسة الصورية أما طبيعة الأدلة فى عصرنا فهى تقوم على الواقع والتجربة والعلم وقد أشار الشيخ وحيد خان عن تلك الطبيعة فقال : تتلخص حقيقة علم الكلام الجديد فى أنه استجلاء حقائق الدين بالأدلة التى تطمئن الذهن الجديد والعقلية الجديدة . . وتوصل التعاليم الإسلامية بأحدث أساليب الاستدلال الملائمة للعقل الجديد .. فما هو العقل الجديد ؟ إن مدلول هذه الكلمة مدلول مرادف لكلمة العقل العلمى أو العقلية العلمية والعقلية العلمية عقلية مهمتها الحقائق[1] . وهذا المنهج لا يختلف عن منهج القرآن فى شيء فباستقراء آيات القرآن نلاحظ دعوة القرآن إلى الاستشهاد بالحقائق الملموسة التى يقوم عليها العلم ومن الجدير بالذكر أن بعض المتكلمين الأوائل قد بنوا استدلالاتهم على الوقائع المحسوسة ثم الانطلاق منها إلى المعقول لكن هذا المنهج كان يستوعب العلم السائد فى عصره .. وعلينا أن نوسع دائرة المنهج بحيث تتسع لعلوم العصر والأخذ بنتائج تلك العلوم .. وإذا كان علم الكلام يقوم بالرد على الملحدين فإن سمة الإلحاد فى هذا العصر هى العلم فهو إلحاد باسم العلم فعلى علم الكلام أن يخوض دائرة العلم المعاصر وذلك ليستوعب سلاح الخصم ويتفوق عليه .

وإذا كان ذاك يخص منهج علم الكلام فإن هناك أمراً يخص موضوعات علم الكلام حيث أن المتكلمين قد خاضوا فى مسائل وتفريعات كانت وليدة عصرهم وكان للمنهج الجدلى الذى اتبعه المتكلمون أثر كبير فى

---

(١) وحيد خان قضية البعث الإسلامى ص ١٠٢ — ١١٨ الترجمة العربية .

اتساع هذه الخلافات بينهم حتى أصبح يكفر كل فريق مخالفيه .

وإزاء هذا علينا في نظرتنا الجديدة لعلم الكلام أن نبحث حقيقة هذه الخلافات وأهميتها وهذا يتطلب منا نظرة جديدة إلى المشكلات الكلامية التي بحثها المتكلمون وبيان حقيقة الخلاف وأسبابه وموضوعاته وهذه الرؤية الجديدة سوف تعيننا على حقيقة تلك المشكلات وحقيقة موقف المتكلمين وتجعلنا نستبعد الكثير من التهميشات والتفصيلات التي زادت هذا العلم تعقيداً وبذا نخلص العلم من تلك التعقيدات التي تجعله عسير الفهم صعب المنال وهي ليست أصلا من أصول الدين ولا تخدم العقيدة ويكون في إمكاننا تقديمه بصورة سلسة ميسرة للمسلم المعاصر وتقديم فهم صحيح لأصول العقيدة بعيداً عن كل ألوان المغالاة والتعصب التي تطفو على السطح في عالم اليوم وتظهر بعض الدعاوى على ساحة الفكر الإسلامي المعاصر ونتيجة لسوء فهم لأصول العقيدة وهذا يثبت الحاجة إلى دراسة علم الكلام لبيان الفهم الصحيح للعقيدة وأصولها حيث إن هذه الدعاوى تتصل بالعقيدة وعلم الكلام يشمل مباحثه تلك الموضوعات وفي الحقيقة أن دراسة علم الكلام توقفنا على أهمية النظر العقلي في الدين وحدود استخدامه وترسم لنا منهجاً قويماً لتحقيق ذلك وفي الواقع أنه قد كان لغياب النظر العقلي أثره البالغ في تخلفنا وواقع الأمة يشهد بأنها عاشت مجدها في عصور ازدهار العقل المرتبط بالوحي .

والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

د/ شوقي إبراهيم علي عبد الله
أستاذ مساعد بقسم العقيدة والفلسفة بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر بالقاهرة

أهم المراجع التى اعتمد عليها الباحث

١ ـ القرآن الكريم

٢ ـ صحيح البخارى

٣ ـ أصول العقيدة الإسلامية د/ عبد المقصود عبد الغنى

٤ ـ الاسلام يتحدى وحيد الدين خان

٥ ـ الله فى التصور الاسلامى صدر الدين القبنجى

٦ ـ الأمالى ـ الشريف المرتضى

٧ ـ البيان والتبيين للجاحظ

٨ ـ التبصير فى الدين ـ الاسفرايينى ط ١٩٥٥م الخانجى

٩ ـ تاريخ المذاهب الإسلامية الشيخ محمد أبو زهرة

١٠ ـ تراث الانسانية سيرتوس أرنولد

١١ ـ التنبيه والرد على أهل الاهواء الملطى

١٢ ـ تاريخ الفلسفة الحديثة يوسف كرم

١٣ ـ حركات الشيعة المتطرفين ح ٢ د/ محمد جابر عبد العال

١٤ ـ خلق أفعال العباد ضمن كتاب عقائد السلف الأمام البخارى

١٥ ـ دفاع عن السنة د/ محمد أبو شهبه

١٦ ـ دور العلوم العقلية فى نصرة العقيدة د/ عبد المجيد النجار مقال منشور فى مجلة النشرة العلمية

١٧ ـ الرد الجميل للغزالى

١٨ ـ الرد على الجهمية ضمن كتاب عقائد السلف د / النشار وعمار .

١٩ — شرح العيون لابن نباته
٢٠ — شرح الأصول الخمسة القاضى عبد الجبار
٢١ — اعتقادات فرق المسلمين والمشركين لفخر الدين الرازى
٢٢ — الغلو والفرق الغالية د/ صالح مهدى السامرائى
٢٣ — الفصل لابن حزم
٢٤ — فضائح الباطنية الغزالى
٢٥ — فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة الامام الغزالى
٢٦ — الفهرست لابن النديم
٢٧ — فلسفة الفكر الدينى بين الاسلام والمسيحية جورج قنواتى ترجمة صبحى الصالح
٢٨ — الفكر العربى ومكانه فى التاريخ أو ليرى ترجمة تمام حسن
٢٩ — الفرق بين الفرق البغدادى
٣٠ — الفرق الاسلامية الاستاذ محمود البشبيشى ط ١٩٣٣م
٣١ — كتاب الوجود محمود أبو الفيض المنوفى
٣٢ — الكامل لابن الأثير ح٨
٣٣ — مجلة المسلم المعاصر السنة ١٦ سنة ١٩٩٢م
٣٤ — المغنى القاضى عبد الجبار ح٥ ص ١٥
٣٥ — المحيط بالتكليف ح١ القاضى عبد الجبار
٣٦ — مقالات الاسلاميين أبو الحسن الاشعرى
٣٧ — المواقف وشرح الايجى
٣٨ — الانتصار للخياط
٣٩ — نشأة الفكر الفلسفى فى الاسلام د/ على النشار
٤٠ — النجاة لابن سينا ط ١٣٣١هـ

الفهرست

الموضوع	الصفحة
٢ - الأسلوب العقلى	٤٦
تحديات اليوم	٥٢
أساليب التحدى	٦١
١ - الناحية الفكرية	٦٢
٢ - « التجريبيه	٦٣
دور علم الكلام اليوم لمواجهة التحديات	٦٦
تصدير	
دور علم الكلام فى وقتنا الحاضر لمواجهة	٦٦
الخاتمة	٧٣
المراجع	٧٧
الفهرست	٧٩

والله ولى التوفيق

د / شوقى إبراهيم على عبدالله

رقم الايداع بدار الكتب
٥٠٨٧ / ١٩٩٢م
I.S.B.N. — 977—00—3538 – 6
٢٧ ذو الحجة ١٤١٢ هـ — ٢٨ يونية ١٩٩٢ م